خبايا القاهرة

قديمًا وحديثًا

تأليف

أحمد محفوظ

الكتاب: خبايا القاهرة.. قديمًا وحديثًا

الكاتب: أحمد محفوظ

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

محفوظ ، أحمد
خبايا القاهرة.. قديمًا وحديثًا / أحمد محفوظ
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٤٨ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٧ – ٩٩١ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٧١٠ / ٢٠١٩

خبايا القاهرة
قديماً وحديثاً

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

القسم الأول

يسعدني أن أتقدم هذا القسم من حياة القاهرة الطويلة. فقد جلوت فيه ليالي القاهرة، وملاهيها، ونواديها، ومقاهيها، وفنادقها، وحياة التمثيل، وحياة الغناء، والحياة الاجتماعية، والعادات، والمعاش، والأعراس، والأعياد، والظرفاء، والشحاذين، والثورات، والحياة النيابية، قديمًا وحديثًا.

وقد قسمت هذه الحياة إلى ثلاثة أقسام: هذا القسم الذي بين يديك، واسمه خبايا القاهرة وسيتلوه القسم الثاني، وفيه مشاهد القاهرة من أماكن ومتاحف وشوارع وغير ذلك، وقد أسميته (جولة في القاهرة). ثم يتلوه القسم الثالث، وفيه نشأة القاهرة، وخلفاؤها، وسلاطينها، وولاتها، وحكامها وأعمالهم، في كل عصورها ودعوته (حكام القاهرة)، وقد توخيت في هذه الأقسام أن أنفذ إلى الأعماق غير عابئ، بشيء إلا بالحقيقة التاريخية.

وقد جهدت أن أبرز كل هذا في أسلوب مستساغ شيق لا يمل من النظر فيه قارئ، كما أني أرجأت ذكر المراجع التي تبلغ العشرات، حتى القسم الأخير، ولكني لا أستطيع أن أمسك هنا عن ذكر السيد الكريم مُحَمَّد نديم المدير السابق للبوليس، والذي خدم في بوليس القاهرة خمسين عامًا،

ولا عن ذكر الأستاذ داود خاشادور المحامي، ولا عن ذكر الأميرالاي سليمان عزت الطبيب، ولا عن ذكر الصديق الكريم فايق خيري الوجيه، فكل هؤلاء عاونني مشكورًا.

ولست أدعي بعد ذلك أنني ألممت بحياة القاهرة كلها، فهذا غير مستطاع لكاتب واحد، ومن يزحم البحر يغرق.

أحمد محفوظ

ليالي القاهرة وملاهيها

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن القاهرة أحفل بلد في الشرق الأوسط بالطرب والملاهي والترويح عن النفس، فقاهرة الفاطميين كانت تلهو وتطرب، وقاهرة الأيوبيين كانت تلهو وتطرب، وقاهرة المماليك كانت تلهو وتطرب حتى قاهرة العثمانيين كانت تلهو وتطرب، فإن طبائع أهل هذا البلد غالب عليها حب التنفيس عن القلب والترويح عن النفس، فأهله ظرفاء فلاسفة ضاحكون دائمًا، وقد حدث أن نابليون حين دخل القاهرة أبصر في طريقه مائة عرس تذخر بالطبول والمزامير، فعجب القائد الفرنسي وقال: "عجبت لهذا البلد الذي لا يعرف الحزن أبدًا".

فأهل القاهرة مرحون، يعجبهم السهر والسماع واللهو والاختلاف إلى دور اللهو، والمتنزهات في كل العصور، ويحبّون الشراب والسماع والاحتفاء بزفافهم وختان صبيانهم، وتوديع بعضهم بعضًا عند ذهابهم إلى حجهم، وعند عودتهم منه، كما يحب المسلمون منهم تعظيم نّبيهم وصلحائهم في ليال صاخبه آونة وقورة آونة أخرى. تضطرب بالطبل وبالزمر، وتسكن بالقرآن وتلاوته.

كانت حانات القاهرة في أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك: تقع في أطرافها على النيل مثل طموه، والجيزة، وناهية. وطرة أيضًا كانت ضاحية تقع فيها بعض معاصر الخمر وحاناتها، وفي قلب القاهرة: كانت هناك حارة

الروم وحارة النصارى، وقنطرة الوز، وبركة الأزبكية، وكانت هذه الحانات يديرها غالبًا غير المسلمين من الأقباط واليهود، وطالما بعث الخلفاء والسلاطين بالأوامر لغلق هذه المعاصر وتلك الحانات، وكثيرًا ما كانوا يبعثون بالشرطة لدهم هذه الأماكن وكسر آنية الخمر وسوق السكارى إلى دور الحاكم ليعاقبوا هناك بإقامة الحدود عليهم، ولكن هذا لم يقعد قط بأصحاب المعاصر والحانات عن إعادتها، بل كانوا يعيدونها ثانية لاستقبال المجّان واللاهين والمتنزهين.

وفي هذه القصة نعلم أنه كان بالقاهرة كثير من الحانات لارتياد السكارى والمتبطلين، فقد حدث أن أحد القضاة ظفر بسكير، فلما أراد إقامة الحدّ عليه، أنكر الرجل علمه عن الخمر شيئًا، حتى أماكن حاناتها تجاهله. فلما عدد القاضي له أسماء حانات القاهرة، وكانت تبلغ العشرين حانة، قال الرجل: "أصلح الله القاضي؛ إنه أعلم مني بالحانات فهو أولى بالحدّ".

وكانت تقوم على خليج أمير المؤمنين والخليج الناصري، أمكنة يرتادها القاهريون ليسمروا فيها، ويتنادرون، كما كانوا يرتادون بركة الأزبكية حيث حديقة الأزبكية الآن تشمل بعضًا منها، بعد أن ردمت كلها وكانت هذه البركة تتغذى من الخليج الناصري الذي سنتحدث عنه في القسم الثاني من هذا الكتاب وكذلك بركة الحبش، ومكانها في طريق المعادي، وبركة الفيل ومكانها قريب من السيدة زينب.

كانت هذه البرك تضطرب بأصحاب اللهو البريء وغير البريء، فكان إذا فاض النيل: اجتمع أهل القاهرة حول هذه البرك، كما كانوا يجتمعون حول خليجي أمير المؤمنين والناصري، ومعهم طعامهم وشرابهم وأدوات لهوهم من عيدان وأرقاق وطبول، فيلهون ويغنون ويطربون.

وكان الأغنياء منهم يمتطون صهوات جيادهم ويجوسون هذه الأماكن متنزهين، وكان المماليك ينزلون في مقاه على بركة الأزبكية لتدخين الحشيش وشرب الخمر، وكان حي بولاق خاصة يعج ببؤر تدخين الحشيش، وظلت هذه البؤر تمتد من كوبري بولاق إلى جمعية الإسعاف حتى أوائل القرن العشرين.

وكان شارع بين النّهدين المعروف في السكة الجديدة اليوم سنة ١٩٥٨ معدًّا للبغاء، وكانت نساؤه من الأرمن، ولكنه كان بغاء سريًا غير مصرَّح به من الدولة. فأول من أباح البغاء الرسمي: الفرنسيون حين دخولهم فاتحين، كذلك كان هناك حيّ يمتلئ بالبغايا ويؤمّه الفسّاق من أهل القاهرة. اسمه الربع الزيتي. وقد ذكره بعض الزجالين فقال:

قالـــت في ربـــع الـــزيتي يا ســـــتي ويـــــن حَّبيـــــتي

وكان في القاهرة في القرن الرابع عشر الميلادي: ساحة واسعة في حيّ باب اللوق فيها ملاعب للهو البريء، كالبهلوانات (السيرك) وللحواة الذين يلعبون بالثعابين ومروضي للقرود، وخيال الظل، وكانت هذه الساحة تقصدها النساء وهن محجبات، والأطفال والرجال، وقد ظلت عادة هذا

اللهو البريء حتى عصرنا هذا، فقد كان سوق العصر في جوار قاعة صلاح الدين يزخر بمثل هذه الملاهي، كما كانت تقام عند زواج الأمراء والملوك من بيت مُحَمَّد علي ليلهو عندها الشعب في الساحات العامة.

كان الخلفاء من الفاطميين والسلاطين من الأيوبيين والمماليك يسمرون في قصورهم. فكانوا يقتنون الجواري المغنيات والمضحكين من الرجال فكانت إذا صلّيت العشاء يجتمعون في هذه القصور هم وأصدقاؤهم وندماؤهم وينصبون الأستار التي تجلس خلفها القيان بعيدًا منهن يضربن عليها ويغنين الأصوات المختارة، بأصواتهن الرقيقة. بينها تدور الكؤوس على هؤلاء السادة المترفين فيشربون ويطربون.

وقد أخذ هذا الضرب من اللهو خلفاء بني أُميَّة وخلفاء العباسيين عن الفارسيين، وتبعهم في ذلك خلفاء الفاطميين وسلاطين الأيوبيين، والمماليك. ولا تزال آثاره باقية إلى اليوم في بعض دور أهل القاهرة. وقد انتشرت هذه العادة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في حفلات الزفاف والختان.

وكان بعض القاهريين يحترفون الغناء والموسيقى في القرون الوسطى. فكانوا يحيون الليالي الخاصة والعامة، ومن هؤلاء نسب الطبّالة التي ضربت للمستنصر الفاطمي وغنّت له، فأقطعها حيّ الفجالة كله. وظلّ أغلب لهو القاهرّيين في دورهم يجتمعون له ويحتفلون به، حتى أواخر القرن التاسع عشر حيث نشأ حي الأزبكية فاندفع الناس إليه.

وسبب إنشاء هذا الحيّ: جيش الاحتلال الإنجليزي الذي لا بد له أن يلهو، فقامت بعض الدور التي كانت تحتلّها نساء أجنبيات ومصريات لمتعة الجيش المحتل، ثم أخذت هذه الدور تنتشر وتكثر حتى بلغت المئات وزحمت عدة شوارع، منها شارع كلوت بك، والوسعة، ودرب عبد الخالق، وحارة الكراسي، وحارة الجبروني في شارع الجمهورية، وشارع التليفون أمام ملهى الأوبرا، وكان قطان هذا الشارع من النساء الأجنبيات، وكان يطلق عليهن (فتيات الأرصفة) وذلك لتسكعهن في الطرقات لجلب الصيد الحرام.

وشارع وجه البركة (نجيب الريحاني) وهو أعظمها خطرًا، فكان إذا أقبل المساء خرج بعض أهل القاهرة من عشّاق السهر، وكثير من الوافدين من المدن والريف إلى حي الأزبكية للهو والمتعة البريئة وغير البريئة، فكانوا يرتادون محلات الغناء مثل الألدراتو القديم في شارع كلوت بك، حيث يستمعون إلى الصرفية المغنية وأسماء الكمسارية. وسيدة اللاوندية وغيرهن من المغنيين والمغنيات المحترفين، كما يرتادون الألدراتو الجديد في شارع وش البركة ونزهة النفوس حيث كانت تغني هناك السيدة منيرة المهدية التي كان أول غنائها في مقهى في بير حمص. وكان ظهورها في نزهة النفوس دائمًا في الساعة الثانية عشرة مساء، حيث كانت تقف على المسرح وتغني (اسمر ملك روحي) وغير ذلك من الأغاني الخفيفة وهي واقفة تقرع خشب المسرح بنعل حذاها.

وكان على مقربة من حيّ الأزبكية في شارع البواكي: ملهى ألف ليلة حيث كانت تجلس لبيبة فخر الوافدة من الشام والتي تسَّمت باسم توحيدة، وعلى جانبيها تختها بآلاته الموسيقية، يرجعون ما تعيده من غناء ناعم سيء التأليف.. ويحمل إليها الفينة بعد الفينة زجاجات البيرة من المعجبين.

وكانت تلك الأمكنة سالفة الذكر تمتلىء بالنساء البدينات غالبًا، والجميلات أحيانًا في أثوابهن المزركشة بالترتر والقصب، وقد انحسرت أثوابهن عن نصف صدورهن وأذرعهن، فكن يلهبن الحواس في أقوام كانوا لا يبصرون في سبيلهم إلا الحجاب الضافي الساتر، وكان هؤلاء النسوة يجلسن إلى روّاد هذه الملاهي على شريطة الفتح أعني تقديم الخمر لهن بأثمان فاحشة.

وربما عرّج أصحاب اللهو على حديقة الأزبكية فدخلوها، حيث توجد فيها مقاهي الرقص والغناء، فهناك شفيقة القبطية في مرقصها، تلك الراقصة التي بلغت في الشهرة مكانًا ذائعًا ونالت من الذهب الشيء الطائل. ثم أضاعت كل هذا، وسلخت شيخوخة معدمة بائسة وماتت وهي لا تملك شيئًا.

وأول من غنىّ المونولوج في القاهرة هما: ليلى وقمر اليهوديتان، وكان لهما منولوج محفوظ من عامة شعب القاهرة وهو:

عصـــفوري يامـــه عصـــفوري   أرقـــص وأوري لـــه أمـــوري

ثم طرقه بعد ذلك على الطريقة الغربية: الأستاذ عبد القدوس، فكان يلقيه في المسارح العامة. ومونولوج حسن فايق معروف عند العامة وغير العامة، وهو الكوكايين خلاني مسكين.

وكانت طيرة المغربية في بعض العهود: تحتل تحت الألدراتو القديم، وهي يهودية يحمل وجهها سحنة الساميين، وكانت تغني غناءً مغربيًا وهو أشبه بالحداء.

وكان شارع وش البركة (نجيب الريحاني) ممتلئًا بالبارات العامة، وفيه من النساء عدد وفير بين مصريات وأجنبيات لخدمة الزوار وتسليتهم. وكان من أشهر هذه البارات التي تشبه علب مونمارتر ومونبرناس في باريس: بار الألكزندري، وباميه بار، والكستبان الأحمر، وبار ماري وأوبلسك. وشولار. وفي شارع كلوت بك بار السبعة أبواب وحلواني اللوفر. وعلى أطراف شارع وش البركة كان يجسم باران هما من أشهر بارات القاهرة قاطبة: ديراكاتوس. وكافيه أجيسيان. وكان يجلس في البار الأول الملك فؤاد أيام تعطله. وكان ربما احتاج إلى خبز غير الخبز المقدّم له على مزة الخمر. فنادى بائع (الصميت) وابتاع منه ذلك الخبز المملح الذي يطلق عليه الإشتنجل. وفي مائدة أخرى كان يجلس البرنس أحمد ذلك الأمير الإقطاعي الهائل وهو والد الأمير السابق يوسف كمال الذي كان يملك مدنًا كاملة في صعيد مصر. وكان يحفّ بهذا الأمير الضخم الأحمر الطربوش كثير من الندماء وأصحاب النكتة مثل الدكتور بكير ومحمَّد البابلي وعجموغلي الإيراني.

وكان بار دراكاتوس هذا يقع في مكان لطيف تصطف موائده على الإفريز المجاور لهذه النافورة الهادرة ليل نهار. ولا تزال باقية إلى اليوم. يراها السالك في شارع الجمهورية. وكان روّاد دراكاتوس ينعمون بالنظر إلى الحرام والحلال. فهم في متعة بين هذه الوجوه التي تطلُ عليهم من النوافذ القريبة من نساء أجنبيات كن يقمن في الأماكن القريبة المخصصة لهذا الصنف من النساء. وكان أغلبهن على حظ وافر من الجمال والرشاقة وإن كنت مبتذلات تعيسات.

كما كان هؤلاء الرواد ينعمون أيضًا بالوجوه النضرة المحجوبة بالأحجبة الشفافة وهي في العربات الفاخرة الرائحة الغادية، حيث كان الطريق إلى شبرا فهناك الزروع والأشجار الواردة وأمكنة النزهة. فقد كانت شبرا، قبل أن تزدحم بالبيوت المتراصة التي عاون في إقامتها التقسيط ورخص الأرض: مكانًا للنزهة ينافس جزيرة النيل.

وكان البار الآخر (كافيه إجبسيان) بجواره ويفصل بينهما شارع المهدي. وكان هذا البار أنيقًا عجيبًا لم تر القاهرة له مثيلًا في حياتها كلها فكل خدمه من النساء الجميلات، وكل مطرباته من النساء الجميلات أيضًا وكن أجنبيات يعزفن على آلات غربية مقاطع لبتهوفن، وشوبان وغيرها من أعلام الموسيقيين الأجانب، وكان ثمن الشراب فيه مرتفع السعر.

ومن رواده: ذوات القاهرة الأغنياء فكنت تبصر هناك سليم السلحدار العارم الذي كانت تصطحبه دائمًا حاشية من الأنباء تبلغ أثني

عشر تابعًا بين أسود، ومغربي، وطلياني ومصري، وقد كانوا له بمثابة الحرس، للدفاع عن استهتار هذا الرجل الشركسي المتمصر الغني، الذي كان يقتحم المقاهي والبارات– بالدوكار– وهي عربة صغيرة يقودها حصان واحد وكانت من مراكب أولاد الذوات في أوائل القرن العشرين. فكان إذا اعترض صاحب مقهى، أو مدير بار هجم عليه هؤلاء الحراس فأوسعوه ضربًا وأذى. ومن الإنصاف لهذا العربيد العارم أن نقول: أنه كان يدفع كل خسائر دوكاره من أوان محطمة وموائد مكسورة.

وكان من روّاد هذا المقهى: عبد الحيّ حلمي المغني في صحبة مُحَمَّد باشا موسى الصعيدي الغني، ومن رواده أيضًا كبار ضباط الجيش، والمستشارون في المحاكم الأهلية. وبعض كبار الأجانب. وكان عباس حلمي الثاني يأبى على حاشيته ورجاله الاختلاف إلى المقاهي والبارات إلا هذا البار الراقي.

وفي فترة من المرح والموسيقي: تلّم بهذا البار فتاة حلوة مخضبة اليدين والكعبين بالحناء تعصب رأسها بمنديل تتذبذب من حواشيه حلقات منسوجة بين خضراء وحمراء وبنفسجية، وقد حملت سلة لطيفة مملوءة بالأذرة المشوية، وهي تنادي:

(توب علي من الأزبكية.. ومشي الأزبكية.. وشخط الشاويش مع الغفير فيه.. يا دره عال يا مشوية).

وإذا دلفت إلى الوسعة ألفيت هناك قهوة إلياس.. ذلك الإغريقي المهاجر في طلب الرزق الحرام، الذي أعد قهوته هذه للمتعة البشعة، فقد جلب لها النساء أنصاف عرايا مدرّبات على الرقص، حيث يستعملن بطونهن وصدرهن للتعبير المثير وربما وضعن على رءوسهن الأواني الملأى بالماء يرقصن بها، فلا تقطر منها قطرة واحدة، ولا تنحرف انحرافة يسيرة عن رءوس هؤلاء المتلويات المترنّحات، وربما حملن الشموع في أوانيها، وقد حداهنّ رجال يلبسون الأثواب الفضفاضة ويلتحفون بأوشحة من الحرير اللامع. وفي أيديهم وأفواههم مزامير طويلة تبلغ المترين، ينفخون فيها على دقات الطبول ليثيروا بهذا التوقيع هؤلاء الراقصات.

وفي أغلب منازل الإثم من شوارع وجه البركة والوسعة ودرب طياب كنت ترى هناك حلقات مجتمعة للغناء، ترأسها نساء يغنين بأصوات قبيحة غالبًا، حسنة في النادر القليل، وقد تحلّق حولها سمّار سكارى معربدون يصيحون تارة ويصفقون تارة أخرى، في أصوات صاخبة واضطراب مزعج، تضيع في ضجيجه هذه الأصوات المبحوحة المجهدة.

وكانت هذه الليالي تشتهي دائمًا بالشجار والملاكمة والسباب، وربما بلغت مكانة الخطورة فيموت فيها البعض وتشجّ رءوس البعض الآخر، وتفضي حوادثها إلى أقسام البوليس ثم إلى محاكم الجنايات.

ومن أشهر هذه الحلقات: حلقة الأسطول والأسطول اسم: كان يطلق على صاحبة هذه الدار التي كانت يُعقد فيها هذه الحلقات، وكانت

امرأة ضخمة رهيبة لها أعوان مسلّحون بالمدي والعصي الغليظة وماء النار فكان إذا عربد معربد وأخرجت الخمر زائرًا من المرح الهادي اللطيف إلى الصخب والضجيج والشجار أخرج هؤلاء الأعوان سكاكينهم وعصّيهم وصبوا ماء نارهم على الوجوه والرءوس والأذرع ووقعت الواقعة فكان الصفير الحاد واختلاط الجلوس بعضهم ببعض والهرج والتزاحم ثم دخول البوليس وسوق الجميع إلى المخفر.

وكانت تشبهها في الخطورة «حلقة الملدنة» وهي امرأة نحيفة لا نجدها إلا متكئة على الحشايا المبثوثة، ولكنها على رغم نحافتها وسقمها البادين كانت في شراسة النمر.

وهناك أيضًا كانت دار عزيزة الصّرصارة، وهي امرأة فيها خبث ولين. ومن أشهر عن عرف عندها من النساء: امرأة اسمها فردوس قطط كانت تعجب طلبة المدارس. وهناك أيضًا دار منيرة الخفير وهي كسابقاتها ومن أشهر الدور أيضًا في تلك البؤر: دار نعيمة الظباطي، وكانت امرأة بيضاء مصفرّة الوجه. قد لحقها هذا اللقب لغرامها بالضباط الشبان وحبها لهم. فكنت لا تطرق دارها إلا ووجدت هذه الدار تضطرب بالضباط الصغار. وكانت كثيرًا ما تغني لهم هذا الصوت: «يا حاطط على الستره نجمة».

وإذا عرّجت على شارع المهدي المناوح لشارع وش البركة كنت تجد هناك في بار معروف كبار المصريين. وكان يجلس فيهم أحيانًا الأمير أحمد

فؤاد «الملك» يشرب ويستقبل بالتعظيم والإكبار المقرونين بشيء من التهكّم الخفي لإفلاس الأمير. وكان بينهم: شريف بك بن علي شريف باشا التركي. وهو أيضا أخ حرم عدلي باشا يكن.

وكان لا يترك ليس البونجور في ليل ولا نهار، وربما صحب معه امرأة فرنسية جميلة رائعة. فشرب معها كاسات. ثم تنصرف وحدها وقد حملت في حقيبتها من الثري المتلاف عشرين جنيهًا من الذهب. ولهذا الغنيّ السكير حادثة مع الأديب مُحَمَّد المويلحي. فقد تشاحنا يومًا فصفعه شريف على خدّه. فبلغ هذا الحادث الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد. وكان ينقم على مُحَمَّد المويلحي تشنيعه به في صدد زواجه بالسيدة صفية بنت السيد عبد الخالق السادات في صحيفته، مصباح الشرق. فأطلق الشيخ علي يوسف على هذا الحادث: عام الكف. مثل عام الفيل في الجاهلية وعام الجماعة في الإسلام.

وإذا انتقلت إلى الوسعة في باب الشاعرية وهي أفظع هذه البؤر وأقذرها وجدت ما يشبه الحوانيت وقد أسدلت عليها أستار حمراء. ووقفت أمامها نساء بائسات قبيحات يشاكسن عزّام الرجال بألفاظ نابية سمجة.

وكان عميد هذه البؤرة وسيدها والحاكم بأمره فيها: رجل مخنث يتكسر تكسر النساء ويلبس حليهن ويتمايل تمايلهن ويخشاه الجميع. حتى البوليس كان يخشاه لنفوذه الذي كان يستمد قوته من ماله المبذول لكبار

رجال البوليس الأجانب مثل هارفي باشا حكمدار القاهرة وفليبيدس السوري الرهيب، وسانتي الإيطالي.

وكان إبراهيم الغربي هذا يجلد ويسجن ويقتل أحيانًا هؤلاء الرقيق من النساء اللواتي كان يملكهن ولا يستطعن فكاكًا من قبضته القوية المسيطرة بالرشوة لهؤلاء الإنجليز والطليان والمتمصرين. ولم يزل هكذا يجلد ويسجن ويقتل حتي نكب الذين كانوا يظلونه بجاههم ووظائفهم. فقد عزل الحكمدار هارفي بعد أن ثبتت عليه الرشوة من هذا المخنث وغيره وسيق فليبيدس إلى السجن حيث قضى فيه خمس سنوات مات بعدها ذليلًا فقيرًا، وبعد ذلك سيق ذلك الوحش الذي فيه طبائع النساء وفجر الساقطات منهن إلى السجن لجرائمه وقسوته وتحريضه القاصرات على الفجور، وقد مات هناك ذليلًا مريضًا.

وكان يعقد هذا المشوه مجالس للتسلية المنكرة للأجانب من السائحين، يتقاضى على ذلك أموالًا كثيرة وقد بلغت ثروته عددًا ألفيًا كبيرًا من الجنيهات ولم تشهد القاهرة في حياتها الطويلة أهول ولا أفظع ولا أشنع من هذا الأسود المخنث القواد ابن تاجر الرقيق الذي بدأ حياته تقيًا ورعًا حتى إذا ارتحل في رحلة شائنة لأبيه النخاس. تحولت حياته من التقوى إلى الفجور والشذوذ. وقد أراد أبوه قتله لولا تدخّل بعض الضباط المصريين. وقد أنشأ هذا الخنثى العجوز عشرات البيوت، وأكثر من مقهى للرقص الخليع المرذول.

وقبل أن نبرح هذه البؤر التي كانت مواطن اللهو في أوائل القرن العشرين يجب أن نذكر فيها هذه الحانات: التي كان يديرها ألمان وفرنساويون وهي: شولار وفراتوس. وأوبلسك. وفلاش. وفينيش وإجزاندريا بار. والكستبان الأحمر. وبار ماري. وقهوة اللوفر وحلواني اللوفر.

وكانت تقوم في هذه البؤر: مسارح متواضعة للتسلية والفكاهة، فكان هناك: أحمد الفار الذي بدا حياته عاملًا في العنابر ثم ختمها مضحكًا مهرجًا. وكان فيها مسرح سيد قشطة ذلك الضخم الجسم والوجه الذي اشتهر بأغنياته المضحكة وإشاراته المعبرة عن السماجة التي يضحك لها البلهاء وقد اشتهر هذا الرجل بين أهل القاهرة حتى أطلقوا اسمه على فرس البحر في حديقة الحيوان، فهو يشبهها شبهًا يكاد يكون تامًا..

وفيها مسرح كامل الأصلي الذي كان يحمل مكنسته ويحاول أن يضرب بها كل زائر ريفي يحاول أن يحاوره فيما يقول من مهاترات جنونية.

ومما عرف من البوليس الأجنبي الذي كان موكولًا إليه حفظ النظام في هذه البؤر ميسيو كارتييه السويسري، وكان ضابطًا رقيقًا لطيفًا بهؤلاء التعيسات، وريماندا الإيطالي، وكانت وظيفته: فض الخصومة بين هؤلاء النسوة والروّاد من الجمهور عند الاختلاف على الأجور وسانتي الإيطالي، وعمله ضبط كل امرأة يلمحها خارج دارها وسوقها إلى المخفر للعقاب. فكان للمشرفات على هذه البؤر: عيون ترقب، حتى إذا أبصرت طلائع

ركب سانتي بادرت بالتنبيه، فعند ذلك تسرع من النساء اللواتي وقفن أمام الأبواب للتعرض والدعوة.

وكان يعرف هناك غير هؤلاء: قوّاد بائع رقيق أجنبي، اسمه لاينس، كان يقوم برحلات إلى أوربا لجلب الرقيق لتغذية هذه الحجر الحمراء النتنة الريح.

ولم تزل تلك البؤر تزدهر وتكثر نساؤها حتى جاءت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ فطرقها الجنود الأستراليون وأحرقوا بعض بيوتها بما فيها من نساء، فخاف زوارها من المصريين من هؤلاء المجرمين أبناء المجرمين المنفيين في هذه البقاع الشاسعة، وأخذت تلك الأماكن تنكمش حتى ألغي البغاء سنة١٩٤٨..

فإذا برحنا هذه الأماكن العلَّنية البغاء، وأردنا مشاهدة تلك الأماكن الأنيقة المهيأة على الذوق الفرنسي على غرار حانات مونمارتر وعلب مونبرناس عرجنا على ملهى مدام مارسيل ومكانه الآن منها ستديو مصر، فوجدنا هذه السيدة البدينة القصيرة التي لها حزم قوَّاد الجيوش، والتي كانت يطلق عليها في قريتها الفرنسية إذا نزلتها في الشتاء: القديسة مارسيل لكثرة برها بالفقراء وبذلها أموالها للمرضى والمحاويج.

فقد كانت هذه المرأة السالبة الناهية التي تحرص على تقاضي أثمان خمرها، المقدمة إلى نساء ملهاها أضعافًا مضاعفة. تبذل هذه الأموال في سبيل الإحسان والخير لقومها من الفرنسيين.

وكانت هذه القوَّادة البارعة لها ذوق لا يجارى في اختيار النساء من جميع أنحاء أوربا، وكانت تختارهن فنانات ذوات أصوات فضية، وأجسام بضّة فارعة ووجوه حسان.

وكان روّاد ملهاها من أرقى طبقات المجتمع وأغناهم، وهم بعد ذلك لا يعرفون للمال قيمة، فقد كانت قوارير الشمبانيا بأوانيها المصقولة المغطاة تملأ موائدهم، ولا تزال قذائفها تنطلق مدويّة، وقد حف بهؤلاء السادة نساء مدام مارسيل الحسان في أثواب شفافة تكشف كل خفيًّ في أجسامهن البيضة الرخصة.

وكان هذا الملهى يعرض على روَّاده أرقى أنواع الاستعراض الباريسي من غناء ورقص وخلاعة. وقد ظلت هذه المرأة تحتل هذا المكان (كازينو دي پار) حتى أجلاها عنه ستديو مصر. فغادرته إلى مكان بجوار هرم خوفو. ثم انطوت صفحتها ورحلت إلى فرنسا، ومن أشهر روادها: علي كامل فهمي ابن المهندس علي باشا فهمي صنيعة ويلكوكس الإنجليزي. الذي نشأ أجيرًا وانتهى مليونيرًا. وقد دلّل ابنه هذا حتى نشأ منطلق الهوى. فلما مات عنه وكان صغيرًا: نبت مستهترًا لا يعرف إلا اللهو ولا يصاحب إلا كل من يزين له طريق المتعة الحادة المحفوفة بالخمر والنساء. وقد اشترى سيارة كانت لغليوم الثاني بخمسة آلاف جنيه وظل كذلك حتى تزوج من امرأة فرنسية أردته قتيلًا في فورة جنسية شاذة.

وكان يجري مجراه وينسج على منواله فتى من أسرة شركسية، كنت تراه دائمًا ملازمًا ملهى مدام مارسيل، وهو لا يفيق من الخمر، وقد صرعه سكين مستهتر مثله فمات ولم يشرف على الثلاثين من سنه هو حسن الجباخنجي. وكان غير هؤلاء كثير من الوارثين الجهلة الذين كانوا يشقون شوارع القاهرة بعرباتهم الفاخرة في سرعة جنونية وهم يرسلون أصوات أبواقهم في أذان الشعب الراجل المذعور.

وقد أخذت مدام مارسيل فنَّها الأنيق في إدارة ملهاها عن امرأة أخرى فرنسية. كانت تعشق أميرًا مغربيًا طريرًا مرفوع الشارب. يشبه الملك السابق فؤادًا تمام الشبه. وكانت تدلله وتُعنى به. حتى أنها كانت تعد له أكياسًا من المطاط مملوءة باللبن لينام عليها لتبقى لوجهه طراوته.

وكانت مدام جاندكس هذه في عمارة يحتل مكانها الآن بنك باركلز في القاهرة، وكانت تحضر لزوارها من الأسر الكبيرة المنحدرين من أصول شركسية، هؤلاء الذين كانوا يملكون أكثر الأطيان الزراعية في مصر، وهي التي أقطعهموها مُحَمَّد علي وأولاده وحفدته كما كان من زوارها أيضا كبار رجال الجاليات الأجنبية أصحاب الامتيازات الممنوحة من عهد السلطان سليمان.

و كانت هذه المرأة تعرض على هؤلاء المترفين ألبومات مصورة تزدحم بالوجوه الحسان من غواني باريس وروما، حتى إذا أعجب وجه من هذه الوجوه واحدًا من هذه الوجوه المزيفة الكسالى، أرسلت في استدعائها لمتعة

الوجيه المتلاف على نفقاته، حتى إذا بلغ منها غايته رجعت إلى بلدها على نفقته أيضًا، أو استعارها غيره من قرنائه، حتى تعم الفائدة الجميع.

ومن البيوت الأجنبية التي اشتهرت في القاهرة في مستهل القرن العشرين: بيت مدام «بورش» بجوار العمارة التي تسكنها اليوم بلدية القاهرة، وكانت تعرف في القديم بصندوق الدين، في جنب مصلحة البريد. وكان هذا البيت يدار للدعارة السرية، ولا يؤمّه إلا الأغنياء الذوات، لغلاء أثمان الأعراض فيه، وكان محرّمًا على البوليس مداهمته. أو إزعاج من فيه من الجنسين لحماية قناصل الدول له، ولخطر صاحبته عند هؤلاء القناصل لأموالها المبذولة.

وإذا أردنا أن نجمع بين اللهو البريء واللهو المريب دخلنا حديقة الأزبكية المزروعة من عهد الخديو إسماعيل، والتي كانت ماءً فردمت في أزمان متتابعة، وأصبحت أكبر متنزّه للقاهرة وملهى؛ ففيها كانت مقاه الرقص متناثرة يؤمّها عشاق هذا الفن الخليع كل مساء. وفيها كانت بركة من الماء تمخرها قوارب صغيرة لطيفة كأنها الجندول في فينيسيا، يركبها العشاق في الليالي القمرية المنسكبة الضوء الفضيّ وتحت ظلال أشجارها كان الهمس الخفي بين الأفواه الظامئة إلى الشهوة والأذان الصغيرة المتظاهرة بالإصغاء لجلب المنفعة وسلب الأموال الحرام وفي زوايا جبلها الصناعي كان الغزل ينساب بين العشاق.

ومن أشهر أماكنها: محل سانتي، كان طعامه جيد الطهو وخمره معتقة وقصاده من الأرستقراطيين الأغنياء، وقد ظلت السيدة أم كلثوم تغني فيه ليال كثيرة.

مقاهي القاهرة وباراتها وكباريهاتها

من أشهر مقاهي القاهرة ولا تزال إلى اليوم: مقهى نوبار، فقد كان مجمعًا للذوات والفنانين ووجهاء الريف. وفيه كان يقضي عبده الحامولي الموسيقار الأشهر أمسياته مع صديقه الثري الذي أفلس بعد أن أنفق نصف مليون من الجنيهات: باسيلي بك عريان. وكان يجلس معهما مُحَمَّد بك ثابت، ابن ثابت باشا الوزير في عهد إسماعيل، ومُحَمَّد عمر الصراف الذي أشرف بعد ذلك على التسعين، ولم ينس نصيبه من الدنيا، والفريق إبراهيم فتحي المعروف بالصراحة المفضوحة. وربما طرقهم خليل مطران الشاعر وسليم سركيس الصحفي، وعبد الحميد أباظة الأنيق الفضي الشعر وفي فمه سيجاره الضخم. ويضيق باسيلي بك عريان بزبائن المقهى الغرباء فيأمر صاحبه أن يخليه له ولأصدقائه فقط، على أن يعوضه الخسارة وزيادة.

ومن المقاهي الشهيرة أيضًا: مقهى السنترال، وكان يقال له أيضًا «أوبرا بار» وموضعه الآن جزء من ملهى صفية حلمي في ميدان الأوبرا وزوار هذا المقهى من غواة النرد والشطرنج ولعب الورق.

ومن مشاهير المقاهي: اسبلندد بار، وكان يواجه حديقة الأزبكية ويقع في شارع الجمهورية (إبراهيم باشا) وجلساؤه من إخواننا الأدباء السوريين. مثل الدكتور إبراهيم شدودي. والدكتور شبلي شميل المتشكك. وجورج طنوس. وطنوس عبده. وكان يجالسهم ويحاورهم الشاعر وليّ الدين يكن وحافظ إبراهيم ووحيد الدين الأيوبي اللغوي العجيب والشاعر أحمد نسيم وعبد الحليم المصري.

ومن مشاهير المقاهي: مقهى متاتيا وهو باق إلى اليوم، وهو مقهى من الدرجة الثانية، وكان المترددون عليه في القديم: السيد جمال الدين الأفغاني، والإمام مُحَّد عبده، وسعد زغلول وإبراهيم الهلباوي. ثم جاء بعدهم إمام العبد الزجال الظريف. وخليل نظير الزجال أيضًا الذي لا يفيق من الخمر والأستاذان المازني وعباس العقاد، والشاعر حافظ إبراهيم والشيخ فهيم قنديل صاحب جريدة عكاظ. وغيرهم من الأدباء الفقراء الذين كانوا يجدون حاجتهم من طعام الفول المستكن في قدوره النحاسية، والذي كان يحتل مطعمه ركنًا قصيًا من هذا المقهى.

ومن مشاهير المقاهي: قهوة القزاز وكانت تحتل الجانب الأيمن من شارع الموسكي إذا خضته من ناحية العتبة الخضراء، وكان عامة زبائنه من أهل الريف، وبعض أهل القاهرة الذين كان يعجبهم النظر إلى القاهريات المحجبات بالبراقع البيضاء والسوداء المخرقة التي تعلوها قصبات ذهبية لامعة في رواحهن وغدوهن في الشارع التجاري الأول في ذلك العهد.

وعلى مقربة من مقهى القزاز، كان هناك حلواني يسمى بمحل اللبان يبيع الفطائر واللبن بأنواعه، وجلساؤه من أصحاب المناصب العسكريين القدامى. فكان منهم من حارب مع عرابي في الثورة، ومنهم من شهد حرب الحبشة ومنهم من حضر فتح السودان، وغير ذلك من الحروب البعيدة العهد. كانوا كلهم قد جاوز السبعين، ولكنهم كان يعجبهم أن يصبغوا شعورهم ويتظاهرون بالشباب. وبجواره: مقهى النيل حيث كان يجلس غواة اليانصيب وغواة الرهان على السباق، ولعباء البرد بالرهان.

وعلى حفافي شارع مُحَمَّد علي مكان سوق الخضار اليوم: مقاهي ركبت من الخشب يسمر فيها السوقة مدخنو الحشيش ومحبو النوادر والقفش البلدي (أصحاب القافية). وفي القرن التاسع عشر كان في شبرا مقهى معروف اسمه: قهوة سي خليل، جلس فيه أصحاب الكيوف.

وإذا دلفت إلى يسارك واتجهت إلى يمينك في شارع مُحَمَّد علي، ألفيت مقهى مضى عليه أكثر من مائة عام واسمه القهوة التجارية، ولا يزال قائمًا إلى اليوم في أول هذا الشارع وصاحبه الآن الحاج علي. وكان منتدى للفنانين ومحل اجتماعهم، وكان لهم بمنزلة دار النقابة، ولا يزال يجتمع به إلى اليوم فلول من فقراء الموسيقيين من أتباع حسب الله. ذلك الموسيقي الأول الذي كان يعمل في موسيقى الحرس الخديوي، حتى إذا خرج منها ألف أول جوقة للموسيقى في القاهرة تسير في مواكب الأعراس ونعوش الجنائز.

وكانت القاهرة قبل حسب الله لا تعرف هذا الضرب من الموسيقى الموفي على الزوال اليوم، ولا تعرفه إلا في المواكب الرسمية التي تحتفل بالخديوي. وإذا أمعنت الخطو في هذا الشارع. وجدت مقهى الكتبخانة أمام دار الكتب المصرية، حيث كان يجلس حافظ إبراهيم الشاعر في أوقات عمله الرسمي يدخن النارجيلة. ويسمر مع موظفي الدار وغيرهم من زواره أمثال الشيخ علام سلامة والشاعر عبد المطلب. والشاعر حسن القاياتي، وصديقه الظريف مُحَمَّد البابلي والشيخ عبد العزيز البشري، وأحمد جاد (نديمه وسميره)، وربما طرقه للأنس به المرحوم الوجيه علي راتب.

وعلى كثب من هذا المقهى: كان هناك محل للشراب الحلال يسقي منقوع الشعير والزبيب والخروب والسوبيا. وكان صاحب هذا المحل واسمه صالح الشربتلي معروف من أهل القاهرة كلها. يقصده أولاد البلد على حمرهم الحصاوي الملجمة بلجم علائقها من الفضة التي تتذبذب على آنافها ما بين جزار وبناء ونساج. وكان غيرهم من أوساط الناس من الموظفين وغيرهم من الشعب يجلسون على المقاعد في عصاري الصيف يشربون الشراب ليتبردوا أمام دكان مُحَمَّد صالح الشربتلي هذا.

وكان وراء دار الكتب المصرية: مقهى بلدي لرجل عرف بشغفه بالديوك ومهارشتها. فكان من زواره: محرم باشا شاهين المشغوف بهذه الهواية وهو قريب الملكة نازلي، ومن زواره أيضًا عبد الحميد شريف ابن علي باشا شريف التركي الغني الذي أفلس. وكان يعلق هذه الهواية. ويزيد عليها هوايته باقتناء الحمام الهزار وتربية الثعابين. وكان غيره من الهواة من

الأغنياء والفقراء يجتمعون في مقهى هذا الرجل الذي يسمى (بقهوة الديوك) يتناقشون ويحتدون ويستبون أحيانًا من جراء هواياتهم هذه.

وإذا تركنا هذا الشارع وتيامنا إلى حي الصليبة في أواسط القرن التاسع عشر ألفينا هناك مقهى الأتراك، وكان خاصًا بهؤلاء الباشبوزق الذين كانوا يؤجرون أنفسهم من بيت مُحَمَّد علي للحرب والذين فنوا جميعًا في موقعة هكس في السودان بيد دراويش المهدية.

وإذا انتقلنا إلى دار صحيفة الأهرام، وجدنا قبالتها المقهى الشهير باسم بار اللواء[١] وقد أسس في أوائل القرن العشرين تيمنًا باسم الصحيفة المجاهدة التي أسسها مصطفى كامل، وكان جلساؤه: مصطفى كامل وأخوه علي كامل والشيخ عبد العزيز جاويش، والصوفاني وداود بركات وأنطون الجميل ومُحَمَّد البابلي وتوفيق فرغلي والشيخ حلمي طوماره ومحجوب ثابت والدكتور أنيس أنسي، والشيخ أحمد العسكري، وغيرهم من الصحافيين والأدباء.

وفي الطريق المفضي إلى شارع قصر النيل المواجه لهذا المقهى، كان يقع بار الأنجلو، وكان معروفًا بشرابه المعتق وحسن أدب خدامه. وكان صغيرًا ولكنه كان مألفًا للدكتور الجراح علي باشا إبراهيم والمستشار سليم زكي والمستشار أحمد كامل والوزير محمود غالب والوجيه عبد الحميد البنان والشيخ عبد العزيز البشري والدكتور شوشة باشا والاقتصادي أحمد نجيب

---

١ مكانه الآن محل للتجارة.

الذي كان يحتل بنك الشراب ما بين الساعة الواحدة بعد الظهر حتى الثالثة مساء. وكان يؤمه أيضًا المرحوم سليمان نجيب الفنان، وكامل الشناوي الصحفي، وعلى الجملة كان زوار هذا البار من علية المثقفين الوجهاء.

وبعد خطوات كثيرة تتجاوز المائة بقليل، نلمح مقهى[٢] الرتز أمام البنك الأهلي، هذا المقهى الصغير الأنيق الذي كان يؤمه توفيق الحكيم والمرحوم عبد القادر المازني والعقاد، وكان يلم به أحيانًا مُحَمَّد التابعي وسليمان نجيب والصاوي وأحمد الألفي عطية ومُحَمَّد العياط والدكتور ناجي الشاعر، وعلى أطرافه كان يجلس عبد الحميد عكاشة، يرقب بعين نسر ضحاياه من الذوات والوجهاء حتى إذا رأى أحدهم انقض عليه في سرعة خاطفة.

وإذا أسرعنا الخطو في أوائل القرن العشرين، وخضنا في أحشاء شارع بولاق (شارع ٢٦ يوليو) عثرنا على بار سان جيمس. مكان عمارة الجندول لبانيها مُحَمَّد عبد الوهاب المطرب. وألفينا في لياليه الحمراء: شوقي الشاعر وعمر لطفي المحامي ومحمود حسني ناظر المدرسة وخليل حمدي قومندان كلية البوليس وحسن رضا المحامي. وغيرهم من العوام في الشراب وحب الويسكي.

---

[٢] يقع مكانه الآن: محل تجاري وهو في عمارة الإيموبيليا.

وعلى يميننا في موضع شيكوريل كان يقوم بار صولت الحلواني الذي كان تحتل أغلب موائده نساء أجنبيات يتحدثن إلى الجلوس من الرجال على مبعدة منهن بالعيون والبسمات الخاطفة لعلهن يقنصن ما يقوم بطعامهن وزينتهن ومأواهن. وكان شوقي الشاعر لا يغيب عن هذا البار الذي هو أيضًا مطعم ومحل حلوى ومشرب للخمر، فكنت تراه دائمًا هناك من العاشرة مساء حتى الواحدة صباحًا وقد تحلق حوله: محجوب ثابت وعبد العزيز البشري ومحمود فهمي النقراشي وعبد الحليم العلايلي وأمين الرافعي وسليمان فوزي صاحب الكشكول وصالح البهنساوي وغيرهم من الوجهاء والأدباء والصحافيين.

وعلى محاذاته كان يقع بار المحروسة ذو الأبسطة الحمراء والمرايا اللامعة والبنك المرتفع المقاعد: حيث يجلس الوجهاء من آل يكن، ومن آل المانسترلي وغيرهم من الشباب الجركسي الأصل. وفي مواجهته كان يقوم بار بطرسبرج، وكان يعرف بطعامه الشهي وأناقة موائده.

وإذا رجعنا من هذا البار وخضنا في الشارع الأنف الذكر دخلنا مقهى بور فؤاد حيث يقتعد الموظفون مقاعدهم على الإفريز العريض في عصر كل يوم ينتهون وجوه الغاديات الرائحات الشاريات الحسناوات في نهم وظمأ، وربما تعرض أحد هؤلاء الجالسين بغزل سمج قوامه البذاء والجرأة. وعلى مقربة منه على ناحية شارع سليمان باشا كان يقع مقهى البول نور وهو كسابقه تمامًا. وعندما نبرح هذا الشارع وندلف إلى يسارنا في شارع سليمان باشا ألفينا محل الأمريكين حيث تجلس خليط من

المصريين والأجانب يستمتعون برخص الأسعار وجودتها من الأكل والمشارب والتمتع بالوجوه من نساء رائحات وطارقات.

وعندما نبرح شارع سليمان باشا ونعرج على ميدان سوارس (ميدان مصطفى كامل) تسوقنا أقدامنا إلى دهليز طويل، يواجهنا في أخرياته حديقة واسعة تتوسطها نافورة تدفع الماء إلى الجو. وقد حفتها بيوت مقامة من الخشب البغدادلي المعروش بالشجر المتهدل. وقد صف في كل بيت من هذه البيوت مائدة واحدة محفوفة ببضع مقاعد. كان يجلس فيها الفنانون والشعراء والعشاق. وكان خير ما يقدم في هذا المكان الشاعرى الظلال: شراب الشاي لأن صاحبه هو ليبتون[٣] ملك الشاي في العالم، وهو محل إنجليزي الطبعة حتى أن المشرفين كانوا من الإنجليز.

وإذا أردنا أن نلم بظرفاء شارع خيرت ونجلس إليهم ونعابتهم، ذهبنا إلى وزارة المالية، وجعلناها على يميننا، فنلمح مقهى موشيدي حيث كان يقضي إمام العبد بعض أوقاته يشرب الزبيب في صحبة خليل نظير الزجال وسليمان جبريل العاطل وسليمان طبيخة السكير وحسين الترزي، وهم يتنادرون ويتضاحكون بعضهم على بعض.

ولو شئنا أن نلم بالأرستقراطية في تظاهرها ونفاقها، قصدنا شارع المناخ (شارع عدلي) حيث يجلس التظاهر في أثوابه الأنيقة وشعوره المصفوفة وبسماته المغتصبة. يتحدث في السباق والنساء واحتقار الشعب

---

[٣] أصبح اليوم: كبار.

في مقهى جروبي الذي كان يمتلئ بالجمال الأجنبي من نساء ممشوقات حسان. ولم تلبث أن دهمت ثورة ١٩١٩ هذا المكان بحماسها فكان الطلبة يجتمعون فيه ويخطبون ويوزعون منشوراتهم الملتهبة. فلم يلبث زواره من الأرستقراطيين أن انسلوا من أبراجهم الذهبية واندسوا في غمار الشعب يهتفون لهؤلاء الشباب من الزبائن الجدد لهذا المكان الرفيع وأصبح الجميع سواء في كره الإنجليز والتطلع إلى الاستقلال.

وفي الحق أن محل جروبي هذا: كان أول داعية إلى الديمقراطية في مصر فقد جمع الجميع على حبها والتضحية لها، وجلس فيه الأرستقراطي الشركسي النشأة مع ابن الفلاح الفقير، يتحاوران ويتآمران ويتحمسان لمصر، وطالما عرف الإنجليز خطر هذا المكان عليهم، فكانوا كثيرًا ما يدهمونه بجنودهم وأسلحتهم للتخويف والاعتقال والقتل في بعض الأحيان.

وفي مقهى[٤] الشيشة في شارع الجمهورية (شارع إبراهيم) أمام حديقة الأزبكية كان يجتمع شمامو الكوكايين وهواة المصارعة بالكلاب: أمثال أمين الدري وفيتاسيون، ومعهم كلابهم الضخمة المعكومة خشية العض والنهش. ومعهم محبو تدخين النرجيلة المعممة بأوراق التمباك. يضحك ماؤها في أوانيه الزجاجية وينطلق من أفواه ماصيها سحب من الدخان الأزرق، وكان من أشهرهم: جلال الدرمللي فاتن النساء بقوامه الفارع ووسامته وحديثه وتجاربه ومعرفته بأخلاقهن.

---

٤ مكانه الآن محل التجارة.

وإذا شئت أن تستروح نسيم النيل، وعبرت كوبري قصر النيل قبل حرب سنة ١٩١٤. رأيت العربات المشدودة إلى جيادها المطهمة المسكوفية تنتظر راكبيها على جنبات مقهى (دلباني) حيث تزدهر اليوم حديقة الأندلس المنمقة الرصف اليانعة الزهر، وكان هذا المقهى من أشهر مقاهي القاهرة النزهة، وكان رواده من الأغنياء عشاق الخمر والنساء. فكنت إذا دخلته بعد الساعة الثانية من الصباح ألفيت هناك شفيقة القبطية وأسماء الكمسارية والصرفية. ومنيرة الخفير ونرجس. ومعهن أصحابهن الذين كانوا يجلسون إليهن في الألدراتو القديم. والألدراتو الجديد وألف ليلة ونزهة النفوس، في أول الليل وقدموا إليهن الشراب بأثمانه الفاحشة، فجاوزوا منهن بهذه الجلسة الحالة الناعمة، وذلك الانفراد العاطفي على ضفة النيل القديم.

وكنت تلمح في هذا المقهى رجلا طريرًا طوالًا أبيض الوجه يتزيا بزي مفضوح غالي الثمن. ويتعمم بعمامة لطيفة تفصح عن طرة كستنائية الشعر لهذا الشاب العجيب الذي لا تبصره القاهرة إلا وهو يسوق دوكاره اللامع، وقد رفع سوطه يلهب به الجواد المطهم، ذلك هو الحمصاني صاحب أشهر منسج لحرير الأحزمة والقفاطين في مصر في ذلك العصر.

وفي شارع عماد الدين حيث اللهو والمسارح وأولاد الذوات الذين يطاردون النساء الممثلات بعرباتهن. كانت تقع قهوة كساب مكان عمارة الأنيون الآن، وكانت مألفًا لبعض الظرفاء من السادة أشباه: إبراهيم باشا رأفت الذي بلغ الثمانين وهو يمرح ويلهو وكأنه شاب في العشرين، وعلي

باشا ثاقب المستشار، وعبد الله بك أباظة الوفدي الوحيد في الأسرة الأباظية. وكان في غاية من الظرف والأناقة، ويوسف بك حلمي الموظف السابق في وزارة المالية، ومعهم ذلك الفتى السوري البض الذي كان لا يفارقهم، وكانت شارلوت الساقية الألمانية تخدم الزبائن في البار الأمريكاني من هذا المقهى. ومعها لينا الإيطالية تملأ الكؤوس لهذه الألمانية الحلوة الوجه فتحملها إلى الزبائن الذين كانت تتهالك على طلب البقشيش منهم لتنفقه على ملهى السيروس الذي كان مديره مُحَمَّد وهبي شقيق يوسف وهبي في شارع سليمان باشا بعد أن تفرغ من عملها الساعة الثانية صباحًا. وكان من أشهر رواد هذا المقهى: عباس شريف المحامي النابه الذي كان يواصل صباحه بليله، ولا يمل الحديث المتواصل والضحك الصاخب.

وفي قبالة مسرح رمسيس (مسرح الريحاني) كانت تقع قهوة الفن، وعلى مقاعدها تبصر البؤساء والفنانين والأدعياء والنساء الفنانات الضاحكات ومعارفهن من أولاد الذوات وغير أولاد الذوات؛ فكانت هناك ماري منصور الخمرية اللون الصريحة الإشارة والمرحة دائمًا في ضحكات تملأ ذلك المنعطف الواسع، وهناك أيضًا زينب صدقي التركية الوجه اللاذعة النكتة، وبجوارها كانت تجلس دولت أبيض السيدة الوقور ومعها أمينة رزق الحزينة دائمًا، وعلى مقربة منهن كانت تجلس صالحة قاصين ممثلًا فيها تاريخ الفن كله. هذه السيدة التي فتنت يومًا الرجل العبقري نجيب الريحاني. وعلى مقاعد أخرى كان يجلس عزيز عيد ومعه زوجته الشابة الصغيرة التي حجب الفن عنها الشيخوخة والدمامة، ومع عزيز عيد وفاطمة رشدي. كان يجلس صديقهما وضيفهما سيد قدري

الذي نكأ الدنيا فلم يتزوج، ولم يعرف له رزقًا ثابتًا ولا متحركًا، ذلك الرجل الذي يظل ساهرًا أسبوعًا لا يطرق النوم عينيه ولا الطعام بطنه. وفي ركن منعزل يظل أحمد علام نقيب الممثلين اليوم ينظر في ساعته في انتظار صديقته الرشيقة الحلوة الباسمة دائمًا كيكي.

وفي مقهى صغير يقع بين مسرح الإجبسيانة، ومسرح الكسار، كان يجلس مصطفى أمين الممثل الذي اغتنى مرارًا وافتقر مرارًا، والمؤلف أمين صدقي الذي أغناه الغرور وأفقره أيضًا، وقد ترك للسينما بنتًا فنانة (لولا صدقي) ومعهما علي الكسار البربري الذي أمل رواده بهذه الشخصية التي لا تتغير والذي بدأ حياته الفنية في مقاهي روض الفرج. تلك المقاهي الخشبية التي كان النيل يمسح قوائمها الحديدية المقامة عليها، والتي كانت تعج بفنانين وفنانات شارع مُحَمَّد علي، يعرضون عليها فنهم الرخيص الممزوج بالغناء والرقص والمونولوج. وفيهم حسين المليجي ونعمات المليجي، ولهلوبة، وزينب فلفل، والعفشة، وزمبلك، وكانت هذه المقاهي لا تكلف روادها كثيرًا، فهي رخيصة الشراب رخيصة رسوم الدخول، وكانت شعبية يتألف قصادها من صغار الموظفين وصغار التجار، وأهل الحرف من الصناع، وكانت على فقرها حلوة الأمسيات في الصيف حيث الهواء الرقيق، والمرح المؤنس، فهي مصيف القاهرة الليلي للذين قصرت أيديهم عن النزوح إلى المصايف البحرية.

وفي ميدان التوفيقية كان يقوم بار بافاريا وخلفه بار روسو، وبار ديناليسكا المغربية التي فتنت كثيرًا من العشاق، وبار لوللاه.

وكان صاحب بار بافاياريا الذي يحتل مكانه الآن عمارة الأوقاف يهوديًا عملاقًا له زوجة حسناء من أهل رومانيا تجلس على الكيس دائمًا ويجلس تحت أقدامها سانتي الذي ذكرناه، والذي أخرجته الرشوة مطرودًا بعد أن أثرى من هذا السبيل الحرام.

وكان يجلس على البنك من هذا البار: أحمد رامي القاتل الهارب المختفي في المقابر وهو يزمجر ويسب وقد امتلأت خياشيمه بمسحوق الكوكايين، وكان هذا الرجل يشبه الملك فواد شبهًا عجيبًا، وقد أرداه إسرافه على نفسه وعلى الناس حيث مات في سجنه. وربما طرق هذا البار سليم السلحدار المرعب بحاشيته، فعربد واصطخب وحطم وأذى الناس.

وفي شارع سليمان باشا حيث عمارة أبو رجيلة اليوم نلم بنادي السيروس، هذا النادي الذي لا تغلق أبوابه ولا تهدأ ضجته. ففيه من الرقص والمرح والسكر والعربدة والقمار الشيء الكثير.

وقد اتخذ بعض موظفي الحكومة من السادة الإنجليز المتغطرسين بعض غرفه وجعلوه ناديًا لهم، فإذا قادتك النشوة، وأردت أن تأنس بهؤلاء الحمر الوجوه السود الثياب، تحلقوا دونك وولوك ظهورهم أنفة منهم واستهانة بك وزهدًا في التعرف إليك.

وفي مقربة من هذا النادي كانت تقع كافيه ريش، مكان قصر الأمير مُحَمَّد علي المزال. وكانت حمراء الأرض دائمًا للرمال المفروشة في حديقتها، وكانت ساجية النسيم في ليالي الصيف. حلوة الجلسة، وربما أقام أصحابها

ليالي غنائية للترفيه جاءوا فيها بصالح عبد الحي والشيخ أبو العلا أول أستاذ للسيدة أم كلثوم، ثم جاءوا بأم كلثوم نفسها في أثوابها العربية المتواضعة، ومعها أبوها وأخوها تنشد بعض التواشيح الساذجة بصوت ينفذ إلى القلب برقته ونقاء معدنه يبشر بمستقبل عظيم لصاحبته الطفلة الريفية.

وإذا ركبنا الترام الذي يخترق القاهرة منذ اثنين وستين عامًا وأردنا الرواح إلى ميدان المحطة. لقينا هناك كازينو البوسفور القديم الشهرة، حيث كان يسهر هناك المغني عبد الحي حلمي الذي طالما أفسد ليالي سهراته بسوء خلقه وعربدته، وربما جر على نفسه الضرب من الجمهور لهذا النبو في أخلاقه، فقد ضرب في هذا الكازينو في ليلة من الليالي ضربًا موجعًا.

وقد شهد هذا الكازينو: عبد الوهاب يغني فيه للناس، كما شهد السيدة أم كلثوم، وملك، ونعيمة المصرية، وغيرهن من الفنانات والمطربات، وقد تحول في هذه السنين الأخيرة إلى صالة للرقص والغناء والمسرحيات الفكاهية التي تخلل الرقص وغناء المغنين والمغنيات.

وإذا برحنا البوسفور، وأردنا أن نلم بالبارات الصغيرة التي هي أشبه بالحوانيت منها بالحانات، ذهبنا إلى الفجالة؛ فوجدنا حانة الحاج مليكة ذلك القبطي الظريف المتقدم في السن الماجن الذي اختص بتقديم العرقي الأخضر اللون، والذي لا يعلم سر تركيب عناصره غيره، فقدم لنا منه

بعضًا في أواني زجاجية سماها البنورة، ومعها بعض من الفول النابت والترمس وسلطة الطحينة وسماها المزة.

وإذا أردت أن تحتسي من الزبيب المحوج بضع كؤوس ذهبت إلى أول شارع الجمهورية وهو قريب منك فهناك بار عزوز الشهير.

وإذا مررنا في شارع عباس (رمسيس) وأردنا أن ندخل في شارع (عماد الدين) في أخريات القرن التاسع عشر، ألفينا على يسارنا كباريه (الفولي برجير) وهو على نمط مشوه من سميه الملهى الكبير في باريس، وكان كل فناني هذا الكباريه من الفرنسيين، وكل رواده من أولاد الذوات المتفرنجين ومن الأجانب.

وحيث عرضنا لهذا الضرب من الكباريهات فوجب علينا أن نذهب إلى ضاحيتي الزيتون والهرم، حيث يقوم فيهما ملهيان غربيان في كل أذواقهما، من خدمة وطعام وشراب، وهما حلمية بالاس[٥] في ضاحية الحلمية في طريق المرج. والأوبرج في سبيل الهرم الأكبر، والعادة في دخولهما: رسوم تدفع في أوائل الليل حيث يشهد المتفرج الفن الأجنبي في أرقى صوره من رقص وغناء وموسيقى، حتى إذا انتصف الليل تحول هذا الحشد من الأغنياء والمترفين والمتطفلين إلى الرقص المخاصر. الذي يتبعه في كل دوراته زجاجات الشمبانيا المستنقعة في أواني الثلج اللامعة. وطلبها واجب تقليدي لتحية هؤلاء الراقصات المتهاويات بين صدور هؤلاء

---

[٥] أقفل هذا الملهي أبوابه.

السفهاء الظامئين دائمًا إلى المتعة، حتى إذا فرغت جيوبهم قعدوا محسورين ملومين.

وعلى غرار هذين الملهيين[٦] إسكرابيه حيث كان يذهب فاروق وحاشيته، والكيت كات وبيرة الإبراهيمية.

ومن أشهر الملاهي الوطنية التي شهدتها القاهرة ولا تزال تشهد بعضها إلى اليوم: ملهى بديعة مصابني، تلك المرأة الحازمة المغامرة الطويلة الأنف التي تزوجت يومًا من نجيب الريحاني، والتي كانت تنتقي نساء صالتها للترويح واصطياد الدراهم، قد عرفت صالتها حكمت فهمي السمراء الداهية المغامرة التي لفتت إليها القيادة البريطانية إبان حرب سنة **١٩٣٩** وعرفت تحية كاريوكا البضة اللدنة، الثعبانية الرقصة، والتي تهافتت عليها السينما وأعجب بها بعض الأمريكان فتزوجها.

وعرفت ببا إبراهيم التي لا تزال تهز بطنها البرونزي وتضحك بفمها الواسع، وتستروح بأنفها المصري القديم روائح النفع والاستهواء، وعرفت ببا عز الدين التي تخرجت في هذه الصالة، فقامت تنافسها وتطغي عليها، حتى ورثتها ثم ماتت بعد ذلك قتيلة في حادث من حوادث الطيش. وعرفت فتحية محمود البدينة السمراء المونولوجست التي تمثل الجمال السالف الذي كان يعجب الرجال في القرن الماضي وفي أول هذا القرن والتي تخرجت فيها أيضًا وأصبحت صاحبة صالة تديرها وتشرف عليها

---

[٦] كان يقع وراء سينما ستوديو مصر.

خلف سينما ستوديو مصر في شارع قنطرة الدكة، وعرفت صفية حلمي التي يخفي سنها قصرها، فتحسبها في العشرين من عمرها، وهي قد جاوزت الأربعين تلك الفتاة الدقيقة الجسم الحلوة البسمة التي تدهش الناس بسيطرتها على صالتيها: الأولى في مشرب ليبتون القديم في شارع مُحَمَّد فريد، حيث كان يجلس عرفي باشا، ومُحَمَّد إبراهيم هلال، وعطا حسني، وشوقي الشاعر.

ولم تزل تتطلع هذه الفتاة حتى جلست في مكان بديعة مصابني في ميدان الأوبرا، وتلك صالتها الثانية حيث كان يفتح الجندي مقهاه في إبان الحرب العظمى الأولى، وفي هذا المقهى كانت صوفي حبيبة الطلبة وأختها فاتنة الضباط الإنجليز.

وفي الجيزة ضاحية القاهرة الجميلة: يقع مقهى الحمام بأسراره العاطفية ومقهى كازينو بزبائنه الحالمين. وفي الحديقة[٧] التي يفضي إليها كوبري الجلاء التي يجلس في أطرافها كل ليلة من ليالي الصيف: ليلى مراد البديعة الفم الحنونة الصوت، وهدى سلطان الطيبة المنظر واللفاء القوام ومعهما زوجاهما: فطين عبد الوهاب المخرج السعيد بزوجته الحسناء، وفريد شوقي فرنكشتين الشاشة المصرية، ومديحة يسري السمراء الأم وزوجها مُحَمَّد فوزي الذي هو ملحن أبرع منه مغنيًا، وغير ذلك من فناني

[٧] احتلت مكانها الآن عمارة لأحد الأمراء السعوديين.

المسرح والسينما، وفي هذه الحديقة ملهى كانت تنتقل إليه صفية حلمي في الصيف.

وفي ناحية المنيل يقع: ملهى فونتانا الحديث العهد الفخم بلياليه وأثمانه الغالية.

وفي قاهرة الفاطميين: هذا المقهى العجيب الذائع الشهرة ذو الدهليز الطويل الذي تنتظمه مقاصير صغيرة صفت فيها موائد لا تعرف الأناقة ومقاعد تداعى أكثرها، ولكنها محبوبة إلى السائحين من الأجانب الوافدين لمشاهدة سر القاهرة القديمة في أقدم مكان فيها، وهو محبوب أيضًا إلى الفنانين من النساء والرجال، حيث يشربون الشاي الأخضر والأحمر في أكوابه الصغيرة، وبراريده الصينية المزخرفة الدقيقة، وترى فيه المتسكعين من الفقراء والباعة والشحاذين.

وفي شهر رمضان تقبل الدنيا على هذا المقهى فهناك تتوافد عليه كل طبقات المجتمع للسهر حتى الصباح، فأصبح اسم مقهى الفيشاوي مقرونا بمدفع الإفطار والسحور.

وفي حريق القاهرة: اندثر بار باريزيانا[٨] ثم عاد. ذلك البار الذي تعرفه القاهرة كلها بموائده المصفوفة على الأفاريز المستطيلة، ويعرفه رواده بطعامه وشرابه وباعة الفستق والجمبري والكفتة المرشوقة في أسياخها

---

[٨] في شارع الألفي بك.

الطويلة والطعمية، وكل السلع الخفيفة، كالعصي والمناديل والجوارب والأبسطة المعروضة على أ كتاف باعتها والسبح والمباسم، ومصنوعات خان الخليلي والحمزاوي.

وفي خلف الباريزيانا، كان يقع بار الجلوب بموسيقاه الوترية الطروبة وعازفاتها الأجنبيات الممشوقات في أثوابهن الزرقاء، وابنة صاحبه المكتنزة الجميلة، التي أفلست بحبائلها الكثير من أولاد الذوات. ذلك البار الذي تحول بعد ذلك إلى ملهى (التبرين) وكان ينافس ملاهي الأوبرج وحلمية بالاس والإسكرابيه. وفي الطابق العلوي منه: كانت صالة البلياردو الطويلة العريضة المنثور فيها تلك الموائد الخضراء الأنيقة التي لا تمل أكرها البيضاء الرواح والذهاب تحت غمز العصي الطويلة المتكئة على إصبع ماسكيها.

وكان من المترددين على تلك الصالة يحيى علمي ابن الذوات ولاعب البليارد والمختار في مصر وعديل شوقي الشاعر، وفي صحبته الشيخ إبراهيم الدباغ والشيخ أبو العلا أستاذ أم كلثوم وطاهر حقي، وغيرهم من الظرفاء والمغنين لأن الرجل كان يحب الغناء، وكان حسن الصوت، وفيهم أيضًا: صوصه لاعب البلياردو العالمي، وعباس سيد أحمد الوجيه والموظف الكبير، وحسن عبد الله، وأخوه نجيب عبد الله، وأحمد رامي الشاعر، وإن كان لا يباشر اللعب.

نوادي القاهرة

في ذلك المكان الظليل الذي تهب عليه نسائم النيل وتحوطه البسط الخضراء السندسية، وتمتد على مداره الأشجار الباسقة الظليلة وفي جوفه الواسع تستبق الجياد في يوم السبت من كل أسبوع في فصل الشتاء، ويلعب المترفون بالصوالج على خيولهم المدربة. ويقف السادة الأجانب في سراويلهم التي تشبه سراويل سكان السواحل الوطنيين وفي يدهم عصيهم المعقوفة يقذفون في حذر ودربة الأكر البيضاء المنداحة إلى الشقوق.

وتجتمع الأرستقراطية والدبلوماسية الأجنبية والمتظاهرون بالنبل والأناقة والنساء الفاتنات من المجتمع الراقي اللواتي تهتف بأسمائهن المجلات، وتقتات من حوادثهن، وغرامهن وزواجهن وطلاقهن أيضًا.

في ذلك المكان الظليل يقوم نادي[٩] سبورتنج الذي كان حرامًا على المصريين إلا قلة قليلة آمنت بالأجنبي المحتل، فأدخلها ناديه المقتطع من أخصب أراضي الوطن.

ولم يزل المعتمد البريطاني، والمندوب السامي، والسفير الإنجليزي سيد هذا النادي ورئيسه وعميده، لا يرى فيه إلا الأجانب ولا يرضى الدخول لأحد إلا للأجانب وأشياء الأجانب من أفراد بيت مُحَمَّد علي وأبناء الإقطاعيين الجراكسة.

[٩] اسمه اليوم: نادي الجزيرة.

وقد جاهد وزراء العهود كلها في تمصير هذا النادي، أو في السماح لبعض المصريين في التشريف بعضويته فلم يفلحوا إلا في عدد ضئيل، رأى رئيسه الأخير قبولهم ما داموا على الجادة في الولاء للراية البريطانية.

وأراد مصطفى النحاس في محنة القناة سنة **١٩٥١** أن يعصف بهذا النادي فأبى الملك الذي أمضى مرسوم الموت، واحترقت القاهرة، فعاش النادي وهبت الثورة، فإذا بهذه الأرض المنتزعة من أخصب أراضي مصر، تعود، وتعود للشعب، ويلعب فوقها أولاد الفلاحين والعمال، والذوات أيضًا، وتذهب ريح السفير البريطاني وتقتلعه الثورة.

وهذا نادي السيارات الذي يصطخب بالأناقة والأزياء الباريسية من النساء والرجال، وتنداح على موائده الخضراء الأموال الموروثة والمسلوبة من جهود هؤلاء البائسين من الفلاحين.

ونادي المدارس العليا الذي يعرفه المحامون الشيوخ وغير المحامين الشيوخ من مثقفين، هذا النادي الذي كان النواة الأولى لثورة سنه **١٩١٩** والذي كان عون مصطفى كامل في جهاده الشاق مع الإنجليز، وأعضاؤه طالما تعرضوا لخراطيم الماء وعصي الشرطة بين عامي **١٩٠٦** و**١٩٠٧** وهم يهتفون باسم الدستور في وجه ركب عباس الثاني.

وفيهم أحمد ماهر والنقراشي وشرارة وغيرهم من طلبة الحقوق والمهندسخانة والمعلمين والصلب. وكان يخطبهم مصطفى كامل ومُحَمَّد فريد

وعبد العزيز جاويش وعبد اللطيف المكباتي، ويلهبونهم حماسة واندفاعًا للتضحية والتظاهر في سبيل مصر.

وهذا النادي الأرستقراطي لا يدخله إلا وزير أو شبه وزير يطمع أن يكون وزيرًا، هذا النادي الذي كان محطة الانتظار للوزارة في العهود السابقة، ففي قاعاته الفسيحة المرصعة بالمقاعد المكسوة بالجلد الثمين. كان يجلس عدلي يكن وحسين رشدي وعبد الخالق ثروت وإسماعيل صدقي ويحيى إبراهيم وإسماعيل سري ويوسف وهبه وتوفيق نسيم وحسن نشأت ومصطفى فتحي ولطفي السيد وجعفر والي وحسين صبري وحسين سري، وغيرهم من الصدور عشاق الحكم. ولعب الورق واحتساء الويسكي والتهام الطعام على الطريقة الفرنسية.

وعلى رأس هؤلاء كان يتربع ذلك الأمير الأنيق في شبابه والملتحي في شيخوخته، والذي مات كمدًا في باريس، والذي كان لا يرى في مصر إلا مائل الطربوش، بخيل لا يبذل ماله في خير، ولا يساهم في معروف إلا ما يقتضيه حبه للمحتل من إقامة ناد أو معونة للصليب الأحمر البريطاني. وقد زالت دولة نادي محمَّد علي الآن وأصبح شبه مهجور لأنه بات غير ذي موضوع في حكم مصر وفي تهيئة السادة الوزراء لهذا الحكم.

ولا بد للطبقة الأرستقراطية هذه الطبقة التي تأنف من مخالطة الشعب والجلوس إلى العاملين الكادحين، لا بد لهؤلاء من ناد لا يحفل إلا بأصواتهم الخافتة وأثوابهم الأنيقة والهمس بنزواتهم.

ففي نادي سليمان باشا كان يجتمع هؤلاء بين نقاش تافه ولعب خاسر ومغامرات غرامية واستعلاء مكذوب واحتقار للمنعمين عليهم، وكان خاصًا بالمنحدرين من العروق الشركسية والأصول التركية، فلا ترى بينهم عاملًا ولا فلاحًا ولا موظفًا، وقف به حظه عن وكالة الوزارة مهما كان نابغًا نابهًا ألمعيًا.

وفي شارع جلال على مقربة من عمارة شوقي الشاعر، كان يسمع العابر أصواتًا مهللة، ويلمح شبانًا في سراويل لا تخفي إلا أفخاذهم، ولا تستر سيقانهم، وقد كست صدورهم أردية مخططة ووقف بينهم عملاق أجنبي غليظ العنق غليظ العضلات كأنه رجل الغابة طرزان، وهو يمرن هذا القطيع من الشباب على حمل الأثقال من الحديد المصمت، ذلك الرجل هو بوكاليني الإيطالي، وهو صاحب هذا النادي الذي كان يجتمع فيه هؤلاء الشباب، والذي كان يتسمى باسمه.

وعلى شاطئ النيل وعلى مقربة من نادي سبورتنج السالف الذكر امتدت ساحات النادي الأهلي: مدرسة أبطال الكرة في القاهرة، تلك اللعبة التي دخلت القاهرة مع الاحتلال الإنجليزي، ففيه لعب حسين حجازي، وأمان الأسود، ومرعي، وعلى الحسني، والسيد أباظة وغيرهم من اللاعبين القدامى والمحدثين. وفوق أبسطته الخضراء كان يمرح فكري أباظة وسليمان نجيب ومحمَّد يوسف هؤلاء الكهول الشبان.

وفي هذا النادي: غنت أم كلثوم في ليال حافلة، شهد بعضها فاروق وحاشيته المنافقة. وقد أقيم لمنافسة هذا النادي: نواد كثيرة، منها نادي الترسانة، ونادي السكة الحديد في جزيرة بدران، ونادي الترام، ونادي الزمالك الذي كان يدعى بنادي المختلط، ونادي إمبابة، ونادي الجيش في طريق مصر الجديدة. ففي هذه النوادي يتبارى المتبارون بالأرجل والأكتاف والرؤوس لتبلغ الكرة هدفها المنصوب.

وفي ذلك الطريق الظليل بين النيل وفرعه في الزمالك كان يقع نادي القوات المسلحة بأعضائه ذوي الأزرار اللامعة والنجوم والسيوف(١٠). ذلك النادي الذي أبى الذل يوم أراده فاروق على ذلك وعصي وقاوم حتى هبت منه الشرارة الأولى التي أحرقت العرش المتأرجح بصاحبه.

وفي الضاحية المشيدة على الذوق البلجيكي: نادي التنس في مصر الجديدة حيث يقف المتبارون في أثوابهم البيضاء يقذفون الكرة في براعة تخونهم أحيانًا فيجهدون هؤلاء الصبية الصغار المترقبين. وفي هذه الضاحية أيضًا: نادي الهليوليدو، وفيه شتى الألعاب الغربية الدخيلة في العصر الحديث: مثل التنس، كرة السلة، والكرة الطائرة، وإسكواش راكت، وفي حوضه الواسع يسبح أعضاؤه.

---

[١٠] انتقل هذا النادي إلى ضاحية مصر الجديدة.

وفي هذه المدينة الجديدة أيضًا: نادي السباق، هذا النادي الذي أفقر الخاصة والعامة. وفي ضاحية حدائق القبة يجتمع موظفو تلك المؤسسة البترولية (شل) يلعبون ويسبحون في ناديهم.

ولأغلب الطوائف في القاهرة نواد: منها نادي المحامين، نادي القضاة، ونادي المعلمين، ونادي ضباط البوليس، ونادي النوبيين، ونادي السودانيين، ونادى الموظفين، ونادي المحامين الشرعيين، ونادي شرارة، ونادي البشلاوي، ونادي الشبان المسلمين، ونادي الشبان المسيحيين.

ولبعض الجاليات الأجنبية نواد: كنادي المكابي للإيطاليين، ونادي الإغريق، ونادي الترف كلوب للإنجليز، ونادي المعهد البريطاني، ونادي شركة إسو للبترول. وفي القاهرة: نواد أخرى يعرفها روادها وغير روادها وهي كثيرة.

الفنادق

عرفت القاهرة من أيام العهد الفاطمي الفنادق، فقد جاء في التاريخ أن المستنصر الخليفة الفاطمي كان يملك فنادق المدينة كلها. ولا بد للقاهرة من فنادق في كل العصور، فهي الطريق إلى الحج لسكان آسيا وبعض سكان إفريقيا، وهي أيضًا طريق للتجارة، فلا بد للحاج والتجار من مأوى ولا بد للسائحين المتفرجين من مأوى، ولا بد للغريب من مأوى.

فالفنادق في القرون الوسطى في القاهرة كانت على درجات كما هي اليوم على درجات. فالأغنياء من الوافدين في العصور القديمة كانوا ينزلون الخانات المؤثثة الغرف حيث يرسلون بدوابهم إلى الإسطبلات، والمتوسطون الثراء كانوا ينزلون في خانات أقل منها ترفًا وراحة. فقد كان هناك خان أبو طاقية، ووكالة الغوري، وخان يونس، وخان سرور الذي ينسب إلى صلاح الدين وكان عبدًا له.

أما الفقراء: فكانوا يتكدسون في غرف واسعة أشبه بالمخازن بغير فرش إلا أمتعتهم التي تصحبهم والتي كانوا يفترشونها ويتوسدونها، وربما صحبتهم دوابهم تشاركهم مأواهم، وتسمى هذه الفنادق بالوكالات. وقد عرفت القاهرة نظام الفنادق الحديثة في عهد الاحتلال الفرنسي وعرفت أناقة الفنادق بعد الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢. وأشهر الفنادق التي عرفتها القاهرة: فندق شبرد، وكان أشهر فندق في الشرق الأوسط كله، وقد بلغت شهرته في أوربا وأمريكا شهرة الأهرامات الثلاثة وأبي الهول.

وقد طالما شاهد هذا الفندق الملوك والأمراء وكبار الأغنياء وأجمل النساء وأنضج العقول. ففي أبهائه الواسعة كان يجلس روزفلت الكبير رئيس الولايات المتحدة الذي زار مصر قبل الحرب العالمية الأولى والملك فيصل ملك العراق، والملك عبد الله ملك شرق الأردن، وملك اليونان، وملك بلغاريا، وأمراء البوربون، وأمراء هابسبورج، وأمراء هوهنزلرن ومسيو بريان رئيس جمهورية فرنسا، ومسيو كيلمنصو النمر، ولويد جورج، وتشرشل والوزراء العظام والوجهاء من جميع أنحاء أوروبا وآسيا وأمريكا.

وعلى تراسه الفخم كان يجلس الأمراء من بيت مُحَمَّد علي، والوزراء المصريون والإقطاعيون، وكان من رواده الدائمين: حنا باخوم الطويل الضخم الذي اغتنى من أميريه: أحمد باشا وابنه الأمير يوسف كمال.

وكانت قبل الحرب الأولى تحتل ركنًا من هذا التراس فرقة موسيقية من جيش الاحتلال الإنجليزي لتطرب الجالسين.

وعلى مقربة من هذا الفندق العظيم الذي دمره الحريق الغامض مبعثه سنة ١٩٥٢، والذي قام اليوم في أبهة وروعة بجوار فندق سميراميس. يقع فندق الكونتيننتال، وهو يواجه حديقة الأزبكية. وكان رواده من الطبقة الممتازة أيضًا. إلا أنه كان دون الفندق الأول وجاهة وشهرة وكانت تغلب عليه الروح المصرية، ومن نزلائه الدائمين: أحمد زيوار باشا، رئيس الوزراء المفرط في السمن والطيب القلب والضاحك دائمًا.

وكان عامة حفلات الأحزاب تقام في هذا الفندق؛ ففيه كان الوفد يقيم حفلاته، والأحرار الدستوريون، وحزب الاتحاد. وقد خطب فيه سعد زغلول وعدلي يكن وحسين رشدي وعلي ماهر وحسين هيكل وعبد العزيز فهمي وأحمد لطفي السيد، وغيرهم.

وكان المنحرفون من المصريين يقيمون حفلاتهم في هذا الفندق أيضًا، فقد أقام مبروك فهمي وصالح لملوم والسيد عبد الرحيم الدمرداش حفلًا للمندوب السامي البريطاني اللورد لويد. وكانوا يصفقون له في كل مقطع من مقاطيع خطبته، وإن جهلوا لغة الخطبة.

وفي هذا الفندق: انعقد البرلمان المصري، وتم فيه شيء عجزت جميع الأمكنة الأخرى عن إتمامه. قد ائتلفت الأحزاب، وصافح سعد زغلول مُحَمَّد محمود، ورضي عبد العزيز فهمي أن يمد يده إلى مصطفى النحاس باشا.

وفيه أيضًا: كان يجتمع العرب الوافدون لاجتماعات الجامعة العربية من رؤساء وزارات ووزراء وسفراء.

وكان من رواده الدائمين: حلمي عيسى، وسيد شكري الطبيب الوزير الذي مكث وزيرًا أربعة وعشرين ساعة، وأحمد عاصم مدير دار الكتب المصرية والدكتور حمزة، وإسماعيل سري وزير الأشغال الدائم ومُحَمَّد عرفي الذي كان يعجبه الحديث إلى السيد حسن الهندي جاسوس دار المندوب السامي، وعلى الجملة فقد كان هذا الفندق مجتمعًا للساسة المصريين من جميع الأحزاب حتى هدم سنة ١٩٥٠ وتغير حاله، وأعيد ثانية مقصوص الأجنحة.

وعلى غرار هذين الفندقين، كان فندق سافوي أوتيل في شارع قصر النيل، واحتل مكانه مكتب لوزارة التجارة ثم أزيل وأقيم مكانه عمائر بهلر المشهورة اليوم ببواكيها في الشارع المذكور.

وعلى ضفة النيل الخالد يجثم ذلك الفندق العظيم المتلألئ الأضواء في ليالي القاهرة الساحرة، وكان هذا الفندق يزاحم منذ مدة شبرد في حياته ويطغى عليه أحيانًا فمكانه أنزه وعمارته أضخم وغرفه أحسن حالًا وأحفل ترفًا، وقد عرف هذا الفندق من الملوك والعظماء الكثير ففي بعض

أجنحته كان ينزل أغا خان ذلك الرجل الأسطورة كل عام مع زوجته الفاتنة وحاشيته التي تشبه حواري الرسل في مظهرها ولكنهم يخالفونهم في مخبرهم ونوازعهم. وقد عرف فندق سميراميس ساقيًا في باره الأمريكاني طار صوته في العالم يخدم في رقة ويملأ كؤوسه في براعة، ويعرف كيف يتصيد الدراهم والدنانير من زبائنه. وفي حديقة السطح من هذا الفندق يجتمع الهوى والشباب والمال والغطرسة في ليال ساجية عابثة من ليالي صيف كل عام.

وتحت أقدام الهرم الأكبر تنبسط حديقة واسعة يشرف عليها بناء ضخم يعجب النساء ذوات الخيال المتلفت إلى الماضي، والرجال المكدودين من صراع المادة الصاخب، لهدوئه وسحر لياليه القمرية المنسكبة أضواؤها على هذا الصرح الهازئ بالزمن المقيم ما أقامت الجبال.

ففي فندق ميناهاوس تنزل نساء السينما الأمريكيات ورجال المال الأمريكيون، وكل من يستهويه التاريخ في العالم الغربي والشرقي على شريطة أن يكون غنيًا.

ومن المعجبين بهذا الفندق من المصريين: مصطفى النحاس وحرمه، وعلى ماهر، وكان كثير من الوزراء يلجئون إليه عقب إقالتهم أو استقالتهم في زمن فاروق للتعزي والتأسي.

ومن فنادق القاهرة المتوسطة المنزلة: فندق كلاريدج في شارع ٢٦ يوليو، وفندق جلوريا في شارع ٢٦ يوليو أيضًا، وفندق إيدن وكارلتن

وناسيونال[١١] في شارع سليمان باشا وجراند أوتيل في شارع ٢٦ يوليو الذي اختنق فيه الزوجان بالغاز مبيد الحشرات، ومات قبلهما الثري المتهم بالشذوذ مقتولًا من شبان طامعين في ماله. وفندق كابسيس في شارع رمسيس حيث ينزل فيه متوسطو الحال من السائحين. وفندق كراون ومنيرفا ونيو أوتيل، وفي شارع نجيب الريحاني كان هناك فندق بريطانيا حيث ينزل عمد الريف في الوجهين البحري والقبلي، وفندق الغرب على غراره وشاكلته.

وفي شارع كلوت بك: كانت هناك فنادق بريئة، وغير بريئة، منها فندق مُحَمَّد علي والمنتزه والمقطم والآمال والمنيا والفيوم وغير ذلك.

وفي العتبة الخضراء: فندقان لأوساط الناس من الوطنيين.

وفي حي الحسين من قاهرة الفاطميين، كان هناك فندق البيدق في أوائل القرن العشرين، وفندق الشرق، ودار السلام الذي كان ينزله الأديب الظريف الأستاذ إبراهيم الدباغ بعد أن أصيب بعينيه، وفندق الكلوب المصري. وفي حي نادي مُحَمَّد علي الأرستوقراطي: يقوم فندق متروبوليتان، وهو فندق من الدرجة الأولى في نظافة المسكن والمأكل، وقد اشتهر طباخه بشهرة يعرفها أغا خان وزوجته البيجوم، كلما نزلا مصر.. كما اشتهرت صالته في إقامة الحفلات الخصوصية للزواج وغير الزواج، وفي طريق الكورنيش: فندق جزيرة بالاس.

---

[١١] في هذا الفندق: كباريه البروكيه وهو ملهى على الطريقة الغربية.

وفي الضاحية البديعة مصر الجديدة: ينتصب فندق مينا هاوس بغرفه العديدة وأبهائه الممتدة ونزلائه الأثرياء من الأجانب.

وفي القاهرة أيضًا هذه الفنادق: أتلانتيك في (شارع عماد الدين) وأسكس هاوس (في ٢٦ يوليو)، وإسكندرية الكبرى في (البوستة القديمة) وإكس موراندي في (٢٦ يوليو) والأزهر الشريف في (ميدان الأزهر) والأمراء (في شارع الجمهورية) والباب الأخضر في (ميدان الحسين)، والبرنسات (في كلوت بك). والبوسفور (الأزهر) والعاصمة الكبرى (كلوت بك)، والقاهرة الكبرى (ميدان الأزهر) والمدينة (كلوت بك) والمنتزه الحسيني (خان جعفر بسيدنا الحسين) النور (كامل صدقي) الهلال (الخليج الناصري) الهند الكبرى (سيدنا الحسين) أوبرا بالاس (حارة الشواربي ميدان إبراهيم باشا) أوسبورتن هاوس (طلعت حرب) أولمبيا (الجمهورية) باريز (عدلي باشا) بلازا أوتيل (قصر النيل) بور فؤاد (مُحَمَّد علي) توفيق هاوس (شارع توفيق) جوردن هاوس (ميدان المحطة) دار السعادة (سيدنا الحسين) ديروز (سليمان باشا) ديانا بالاس (إبراهيم باشا) رضوان (ميدان الأزهر) رويال هاوس (ميدان حليم باشا) ريجينا (إبراهيم باشا) ريش (عبد العزيز) ستراند هاوس (عدلي باشا) سمر كوين أوتل (إبراهيم باشا) فرنسا الجديدة (كامل صدقي باشا) فيكتوريا (شارع الجمهورية) قنال السويس (ميدان مُحَمَّد علي الكبير) كارلتون أوتيل (٢٦ يوليو) كينجز (المهدي) كوفرت هاوس (شارع الأنتكخانة) لونابارك (ميدان قنطرة الدكة) مارينا بالاس (إبراهيم باشا) مافيت آستوريا (عماد الدين) مصر (ميدان مُحَمَّد علي) مينرفا (سليمان باشا) نهضة مصر (السلطان

شعبان) نوبار الجديدة (ميدان باب الحديد) نيتوكريس (٢٦ يوليو) نيو أوتيل (عدلي باشا) نيو بالاس (شارع دوبريه) نيو سبلنديد (كلوت بك) نيويورك (إبراهيم باشا) هارون الكبرى (نجيب الريحاني) وادي الملوك (حارة الرويعي) وادي النيل الكبرى (ميدان مُحَمَّد علي الكبير) ونتر بالاس (شارع نوبار بحلوان) وندسور للسياح (ألفي بك).

التمثيل في القاهرة

[١٢] لم تعرف القاهرة قبل مسرح الأوبرا مسرحًا نستطيع أن نقول عليه أنه مسرح يجمع من أسباب المسرح الحديث شيئًا، فقبل هذا المسرح الضخم الذي شاده إسماعيل في أشهر قليلة للاحتفاء بزواره من الملكات والملوك والأمراء الوافدين على مصر لمشاهدة الحفل العظيم حفل افتتاح قناة السويس، وقد شيده على عجل حتى قيل: أن العمال كانوا يحرقون الآجر المطلية به الحيطان بالنار لسرعة الإنجاز.

فقبل هذا المسرح، وكانت توجد بعض المسارح التي ينقصها كل شيء يلزم المسرح الحديث تقام بالخشب وبالخيش أحيانًا، لتشهد مضحكات من التمثيل الساذج. فلما أنشئت دار الأوبرا أقبلت على القاهرة الفرق الأجنبية. فأشاعت نوعًا من التمثيل الراقي بين فريق من السادة الأغنياء الذين عرفوا الثقافة الغربية وبين فريق من الأجانب

---

[١٢] قد أقام الفرنسيون عند احتلالهم القاهرة مسرحًا سموه الكوميدي، وليس له صفة المسرح الدائم.

المحظوظين لدى أصحاب السمو الخديويين. والمسيطرين على القضاء المصري والاقتصاد الوطني.

ولم يكتف الخديوي بإقامة دار واحدة للتمثيل للأجانب وأشباه الأجانب من المصريين، بل قد أمر أن تقام دار أخرى أطلق عليها اسم (مسرح الكوميدي) تشبيهًا باسم المسرح الفرنسي الشهير، وتقع مكانها الآن دار البريد في شارع طاهر.

وأول رواية شهدتها الأوبرا هي رواية مضحك الملك (رجاليتو) وقد لحن أغانيها فيردي الذي لحن بأمر إسماعيل أوبرا عايدة الشهيرة أيضًا وقد شهدت الأوبرا عظمة الممثلين الأجانب أمثال: ساره برنار، موتسيللو، سوليفان، وكانت تعرض فيها أشهر الأوبرات العالمية.

وقد تقدم جماعة من إخواننا السوريين للنهوض بالمسرح العربي في القاهرة؛ فقد كان المصريون يجهلون هذا الفن ولا يلتفتون إليه. فقد أنشأ سليمان القرداحي مسرحًا خشبيًا متنقلًا. ولكنه كان على شيء غير يسير من الاستعداد الفني؛ فكان يلعب فيه بعض روايات شكسبير مثل عطيل وهملت، وغير ذلك من روايات المسرح الفرنسي. كما أنشأ سليم نقاش ويوسف خياط مسرحين، وكانا يقدمان روايات: أبو حسن المغفل، وهارون الرشيد، وأنيس الجليس، والشيخ متلوف. وكانت أدوار النساء يقوم بها الرجال في ذلك العصر، وكان الذين يقومون بتعريب هذه الروايات المسرح العربي جماعة من إخواننا اللبنانيين.

وكان إسكندر فرح اللبناني قد أنشأ له مسرحًا في أول شارع عبد العزيز، ولما كان شعب القاهرة يميل إلى الغناء ويتذوقه رأى إسكندر فرح أن يضم إلى جوقه مغنيًا حسن الصوت يلقي بعض الأغاني بين الفصول في فترة الاستراحة.

وكان في الإسكندرية رجل معمم يحترف غناء الأناشيد في الأذكار الدينية، فاستقدمه إسكندر فرح وعرض عليه العمل في فرقته، فقبل الشيخ سلامة حجازي، فأقبل على صوته الحلو النظارة. وأصبح المسرح الذي كان فارغًا في أغلب لياليه مملوءًا بالمشاهدين من محبي الطرب والسماع.

ولم يلبث الشيخ سلامة أن استقل، وأنشأ له مسرحًا خاصًا يحمل اسمه، فكان أول نواة للمسرح المصري الصميم، وكان يقدم روايات الغرام مثل: روميو وجوليت، وتسبا. وكان يفتعل فيها أغان ينظمها له شعراء من السوريين. حتى قصص الدراما العنيفة مثل هملت وعطيل كان يدس فيها أغان منظومة ملحنة لإرضاء ذوق الجماهير.

وقد مصر الأدباء السوريون والمصريون بعض الروايات الغربية وحشروا بين تضاعيفها أغان فكان الجمهور يعجب بهذا الفن المشوه ويطرب له.

وكان العنصر النسائي في ذلك الوقت في تلك المسرحيات: كله من السوريات أمثال إستر شطاح، إميليا ديانا وغيرهما. وكان لا بد من فصل مضحك في ختام كل مسرحية للترويح عن الجمهور. وكان لا بد أيضًا من

إلقاء مونولوجات تهدف إلى الوعظ الرخيص مثل مونولوج فتى العصر ومونولوج فتاة العصر.

ومن الخير التنويه برجال ساهموا في النهوض بالمسرح العربي في مصر، أمثال: عبد الله نديم الثائر المعروف، ويعقوب صنوع أبو نضاره زرقا اليهودي الصحفي، وإسماعيل عاصم بك.

وقد فشا هذا الضرب من التمثيل الغنائي الذي ابتدعه الشيخ سلامة حجازي؛ فسار على غراره أحمد الشامي الذي ألف جوقة وطاف بها الأقاليم، ومحمود صبري، والغندور، وغيرهم.

وفي محطة سيدي جابر كان رجل ضخم متمصر يعمل معاونًا فيها كان يحب التمثيل ويهوى المسرح. ويشاء حظه وحظ المسرح المصري أن يشهد عباس الثاني هذا المعاون يمثل في فرقة للهواة أمامه فأعجبه. فشاء على بخل فيه أن يبعث بهذا المعاون الضخم إلى الكوميدي فرانسيز في باريس ليتعلم هناك على نفقته. وينبغ رجل المحطة، ويعود إلى مصر فنانًا كبيرًا، ويمثل في أول أمره بالفرنسية ثم يطالب إلى إلياس فياض الأديب السوري، في تعريب المسرحيات الفرنسية الرفيعة. وينتخب خيرة ممثلي الشيخ سلامة حجازي الذي كان قد أصيب بالشلل، وقعد عن المسرح زمنًا طويلًا.

وينضم إلى هذه الجوقة الجديدة شاب، يصبح انضمامه يومئذ من البدع، فقد كان حاصلا على ليسانس في الحقوق، فبدلًا من أن يتشح

بوشاح النيابة الأخضر أو روب المحاماة الأسود. اتشح برداء نيمور في مسرحية لويس الحادي عشر.

ويقبل الجمهور على المعاون الممثل، وتغص دار الأوبرا كل ليلة بالنظارة لمشاهدة لويس الحادي عشر وأوديب الملك. والشرق الياباني. وعطيل. وينسى في غمرة هذا الفن الرفيع تلك القصائد الملحنة الركيكة التي كان يستسيغها ويهفو إليها من صوت الشيخ سلامة الطروب.

ولم يلبث الشاب الحقوقي عبد الرحمن رشدي أن انفصل عن جوقة أستاذه المعاون، وأنشأ له جوقة مستقلة، ضم إليها بالترغيب ممثلين من زملائه ونافس أستاذه القديم. ورأى أن يحيي بدعة الغناء في المسرح لأنه لم ينس إقبال الجماهير على الطرب، فلمح طفلًا صغيرًا كان يعمل ترزيًا وهو من أسرة عرفت الإنشاد وقراءة القرآن، وكان الطفل حلو الصوت نحيلًا مصفرًا فساوم أباه عليه. فقبل الشيخ عبد الوهاب أن يبعث بابنه مُحَمَّد إلى مسرح عبد الرحمن رشدي تلقاء خمسة قروش في الليلة الواحدة ليغني في فترات الاستراحة.

فرأى جورج أبيض أن ينازل خصمه وتلميذه في هذا الميدان، فجلب هو أيضًا طفلًا يافعًا يلوح أصله الريفي في السمكة الخضراء المنقوشة في أعلى صدغه. ويندس عبد الله عكاشة وأخواه عبد الحميد عكاشة وزكي عكاشة في هذا المضمار، والثلاثة من خريجي مدرسة الشيخ سلامة حجازي. ولهم أصوات لا بأس بها، ويألفون جوقة. توسطت في الشيخ

سلامة حجازي وجورج أبيض. فكانت تقدم للجمهور هذين الضربين من الفن المسرحي.

وكنت ترى زكي عكاشة الذي كان يعتقد جازمًا أنه أجمل فنان في مصر، وهو يغني مصوبًا فص خاتمه الماسي إلى العيون المطلة من البراقع البيضاء في بناوير المسرح.

وقد مد القدر في غرور هذا الممثل حين اصطفاه الرجل الاقتصادي الكبير طلعت حرب فأغناه وأرضاه، وبلغ من حبه له أن أنشأ مسرح حديقة الأزبكية ليرضي الفن الذي ينتمي إليه الفنان المزيف.

وكان هناك ممثل سوري اسمه: أمين عطا الله يجري على منهج إخوان عكاشة.

وكان يعمل بين هذه الفوضى المسرحية رجل فنان حقًا أحدب طويل الأنف قصير الجرم، يحاول ثم يخفق، وقد لازمه شؤم من هذا الصنف الذي كان يعرف ابن الرومي الشاعر، وقد عاون شذوذ خلقه وجفاء طبعة شؤمه عليه. فقد كان عزيز عيد يوقن أنه أعظم ممثل وأنبغ مخرج أطلعته الدنيا فكان يلقى عنتًا من زملائه ويلقون منه عنتًا من جراء هذا الوهم المغرور الذي ظل يلازمه حتى مات؛ فقد عمل مع الشيخ سلامة فضاق به الشيخ سلامة، وعمل مع جورج أبيض فضاق به جورج أبيض، وعمل معه يوسف وهبي فضاق بيوسف وهبي. وعمل هو مع يوسف وهبي فضاق به يوسف

وهبي، وعمل معه نجيب الريحاني فضاق به نجيب الريحاني، وعمل مع نفسه فضاقت به نفسه.

وكان الرجل فنانًا كما قلت، عرف كيف يجيد فن الإخراج، ولكنه في بعض حالاته كان يطوف به خاطر مجنون، يجعل النظارة حيرى من الهدف المقصود. ولعزيز عيد الفضل الأكبر في تقديم هذه الشخصية العظيمة في المسرح الكوميدي في الشرق كله: "نجيب الريحاني". فقد ذكر عزيز هذا الكاتب الصغير زميله وزميل أمين صدقي المؤلف الكوميدي. وزميل بشارة واكيم الممثل الكوميدي أيضًا في البنك الزراعي الذي كان يعملون فيه جميعًا كتبة بأجور متواضعة ذكره وكان قد أقاله البنك لتراخيه وإهماله عمله، فراح يتسكع في مقهى بشارع عبد العزيز ولا يجد ما يقتات به. ذكره عزيز عيد للمسيو ديمو كانجوس اليوناني الأصل الذي كان يعرف من أخلاق المصريين وحديث المصريين أكثر مما يعرفه أبناء باب الشعرية وحي المذبح. والرجل اليوناني تاجر لهو يعرض تجارته للأغنياء في صالات للرقص وفي مسارح للفكاهة للغنم والربح. وكان خبيرًا بطبائع شعب القاهرة، وكان يزور أوربا ويشاهد في مسارحها فن استعراض النساء مخلوطًا بالتمثيل الفكاهي الخفيف التافه. فما عتم أن دعا عزيز عيد وأمره أن يؤلف فرقة من ممثلي الفكاهة الذين يعرفهم. فبادر عزيز عيد وضم إلى الفرقة ثلاثة من معارفه نبغوا جميعًا حتى صاروا طلائع للفن المسرحي في مصر، وهم زميلاه في البنك الزراعي: نجيب الريحاني، وبشارة واكيم، وفتاة صغيرة كانت التجأت إليه ليعلمها فن التمثيل هي السيدة روزا اليوسف.

ونال الثلاثة إعجاب الجمهور بهذا الفن المستحدث المأخوذ عن الذوق الغربي وأبدع أول الثلاثة إبداعًا رائعًا، وبدأ يجدد، فأحدث شخصية كشكش بك. ولكنه اختلف مع الرجل القلق المشئوم وأبى أن يعمل معه. وظاهر ديموكا نجوس الممثل الناجح وأخرج عزيز عيد مطرودًا يتسكع في شارع عماد الدين، وانتقل بصيده الثمين كشكش بك من مسرح الابيه دي زوز الذي كان يحتل مكان سينما كايرو بالاس، إلى مسرح الإجيبسيانة في شارع عماد الدين وكان يجاور سينما أستوديو مصر الآن ويحتل مكانه سينما الليدو.

وتقبل الحرب الكبرى سنة ١٩١٤. ويضيق الناس بجدها الجاثم على الصدور فينفسون عن أنفسهم في مسرح إجبسيانة. حيث يستعرض كشكش بك النساء الجميلات الخليعات. ويخاطبهن بغزل منظوم منغوم يلهب غرائز الرجال. ويستهوي شغف النساء المضروب عليهن الحجاب.

ويعاون الممثل الناجح المحبوب: اثنان أحدهما عبقري طار صوته وأصبح إمامًا للموسيقى الحديثة في الشرق العربي كله. فكان أمين صدقي يؤلف المسرحية الاستعراضية، ويضع نظم أغانيها، وكان الشيخ سيد درويش يلحن هذه الأغاني المنظومة التي كانت تذاع على ألسنة أهل القاهرة كلهم. وعلى غير ألسنة أهل القاهرة، من مدن مصر جميعها.

ويختلف أمين صدقي المؤلف مع كشكش بك الذي كان استقل بالمسرح وجعله خالصًا من ديمو. ويطلب إليه أن يكون شريكًا له في

الأرباح لا مأجورًا يتقاضى راتبًا شهريًا، فيأبى نجيب الريحاني. وينسل أمين صدقي من مسرح الإجبسيانة. ويعثر على ممثل بوهيمي كان يجوب طرقات الأزبكية يغني لروادها من الأعيان بعض الأغاني الخفيفة في مجالس خاصة يتقاضى عليها أجرًا يزيد في مقداره أريحية سامع. وينقصه بخل سامع آخر. وتلقفت مدام مارسيل الآنفة ذكرها الرجلين. وأنشأت لهما فرقة من شذاذ الفنانين المتسكعين على مقاهي عماد الدين، فنجح المؤلف والممثل في ليال معدودة، ثم أخفقا بعد ذلك، وتفرقت الفرقة.

ولكن أمين صدقي الذي كان يذيع بين من يعرفه ومن لم يعرفه أنه موليير عصره، ما لبث أن عثر برجل قصير كان يتقمص شخصية نوبي، ويضحك بها الناس في مسارح روض الفرج. فاستقدمه أمين صدقي وتعاقد معه شريكًا، وعملا في مسرح الماجستيك (مكانه الآن سينما بيجال) ونجح الرجلان، وأقبلت الجماهير من العامة على مسرحهما معجبة ببربري مصر الوحيد على الكسار.

وما زال أمين صدقي بسيد درويش الموسيقي العظيم حتى استماله للعمل في مسرح الماجستيك. وتأثر مسرح إجبسيانة بهذه المنافسة، ولم يجده أنه استعان بكامل الخلعي الملحن المخضرم، وبمؤلف زجال موهوب هو بديع خيري، وظل المسرحان يعملان: كل لجمهوره حتى انقضت الحرب، وصدف الناس عن هذا الفن الفكاهي، إلا بقايا من العامة كانت يعجبها الاختلاف إلى مسرح البربري الوحيد الذي اختلف معه أمين صدقي وهجره.

ونجم الرجل المشئوم عزيز عيد مرة أخرى، وألف فرقة، وعثر على شاب من أبناء الباشوات كان يمثل في دار أبيه مع أترابه من الطلبة في حي الماوردي بالمنيرة: شخصية نقولا كارتر البوليس السري. وشخصية سنكلر اللص الشريف، وهما شخصيتان كانتا تنشران كل أسبوع في كتيبين صغيرين للتسلية.

واعتقد عزيز عيد أنه بتقديمه هذا الشاب الفاشل في درسه الممثل من منازلهم ابن الباشا لجمهور النظارة أنه أحدث حدثًا في المسرح المصري، ولكنه فشل هو وتلميذه الأرستقراطي باللقب، وتسكع في شارع عماد الدين كعادته، واحتجب يوسف وهبي، وسنلتقي به بعد قليل.

ويهجر نجيب الريحاني مصر بعد أن أغلق مسرحه، وأضاع ماله الكثير الذي حصله من لياليه الناجحة، ويهاجر إلى البرازيل، وقد تزوج بسيدة راقصة هي بديعة مصابني الهاربة من الضرائب؛ فيعملان هناك في التمثيل، ثم يعود نجيب بعد ذلك ويؤلف فرقة من ممثليه القدماء الظرفاء. ويشترك معه في تأليف المسرحيات المؤلف السابق بديع خيري، ويلعب على مسرح فنتازيو في الجيزة. ويضطرد نجاحه، ثم ينتقل إلى مسرح رمسيس الذي أخلاه يوسف وهبي، ويبلغ القمة الفنية، ويموت بالتيفود غير معوض، وينصب اسمه على أمرح شارع عرفته القاهرة في لياليها كلها.

ويعود ابن الذوات باللقب من احتجابه في إيطاليا التي هاجر إليها بماله الموروث عن أبيه ليتعلم الفن. ويفتتح مسرحًا فخمًا معدودًا أعدادًا

حسنًا، ويؤلف فرقة قوية من فلول فرق: عكاشة وجورج أبيض وعبد الرحمن رشدي وينجح. ويطلب إلى بعض الأدباء تعريب المسرحيات العنيفة من الأدب الغربي. لأنه يعجبه في تمثيله أن يسب ويقتل وينتقم. فيرضى بعض النظارة عن صخب هذا الفن، ففي طبائع بعض الناس حب مشاهدة الشجار والملاكمة والصراع.

ويتقدم إلى الممثل العنيف أحد المتمصرين وكان يعمل محاميًا: بمسرحية يسميها (الذبائح). كلها قتل وسب وانتقام، فيفرح بها الممثل العنيف لكثرة ما فيها من ضحايا، وتنجح المسرحية عند هذه الطبائع من النظارة التي تحب مشاهدة الشجار والملاكمة والصراع.

وينهال على الممثل: المسرحيات من كتاب مخضرمين ومحدثين، وكلها تحمل هذا الطابع الوحشي، فيرد أكثرها مستبقيًا موضوعاتها في رأسه العبقري ليصبها في مسرحيات من وضعه هو.

وتذهب ريح هذا الفن العنيف من مسرحيات يوسف وهبي ويذهب معه ماله الموروث والمكتسب، ويقعد ملومًا محسورًا، حتى تهيئ له السينما حظًا آخر فيغنى ويظهر من جديد.

وكان أراد أن يدعم فرقته المنهارة بفرقة جورج أبيض التي لم ينفعها قبل ذلك دعمها بفرقة الشيخ سلامة حجازي فينهار الجميع وتختفي من مسارح القاهرة تلك النهضة المسرحية التي كانت قوية في أول أمرها، والتي عملت معاول المطامع والاختلافات في هدمها. وتبذل الحكومة جهدًا في

إقامة المسرح المصري المتداعي، ولكن هذه الجهود تخفق، فإن الفرقة القومية التي أنشأتها وشجعتها لم تغن عن الفن شيئًا. وتضطرب أحوال التمثيل المسرحي بين فرق شعبية وغير شعبية، ولا يزال يكبو ويتعثر حتى اليوم سنة **١٩٥٨**.

وتظهر عزيزة أمير بأول فيلم مصري سنة **١٩٢٨** وتتابع الأفلام المصرية فينصرف الناس عن المسرح انصرافًا تامًا، وتستأثر السينما في القاهرة بالجمهور، على رغم أنها تتوكأ على عكازتين. وتنظر بعين اللصوص، ولكنها لا تزال تسير، ولا تزال تنظر، ولا يزال الجمهور مقبلًا عليها.

المغنون

لم تعرف القاهرة في عهديها: الأول والوسيط، من المغنين والغناء ما عرفته بغداد وقرطبة، والعلة واضحة، هي تزمت الفاطميين وتظاهرهم بالورع لرواج دعوتهم الشيعية، وجهل أكثر الأيوبيين وعامة المماليك باللغة العربية وانشغالهم بالحروب الصليبية ومقاومة التتار.

والغناء فن، ولا بد للفن من تشجيع ليزدهر ويترعرع، وهو إن لم يقم عليه: الحكام والمترفون من الأغنياء بالتعهد، ذبل وسقطت أوراقه وأدركه الموت.

ولا شك أنه كان للشعب فن، ولكنه كان فنًا مرتجلًا لا يثبت على دعائم قوية راجحة، والفن إن لم يرتكز على قواعد ثابتة من العلم والدراسة، كان لغوًا هباءً.

ظل شعب القاهرة في أغلب عهوده يلهو بفنون مرتجلة من مواويل وأغان وطبل وزمر. ولكنه كان فنًا متغير الأذواق والعصور واختلافها بين الحرية والكبت، ولم يعرف من الغناء قبل عبده الحامولي أصولًا مرعية قط، بل كان مزيجًا من الفارسية والتركية مشوهًا مشوشًا منقولًا عن الأفواه من الجواري التي كانت تتخم بها قصور المماليك، ومن المخنثين من غلمان هؤلاء المماليك أيضًا، فجاء عبده الحامولي فتوغل في الأصول من الفن التركي، وأخذ عنها وعربها وجعلها مستساغة، وقرب البشارف التركية والتواشيح الفارسية إلى الأذواق المصرية ووفق في هذا أبعد توفيق.

وجاء معه رجل آخر أخذ عنه ولكنه كان أحذق منه وألمع موهبة وهو مُحَمَّد عثمان. وكان أهل الفن يسمونه طباخ المغني، ولكن عبده الحامولي كان له صوت جمع كل طبقات الغناء وكان فريدًا في حلاوته لا يجارى ولا يبارى.

حدثني الشيخ الحريري المكفوف وهو شيخ أربى على التسعين، أنه حضر عبده في ليلة من لياليه، وقد وصل الغاية في الأداء وجمال الصوت، حتى سلب الجميع عقولهم، وبلغ من سطوته على الآذان أن أحد الحضور انكب على وجهه مغشيًا عليه من الطرب.

ولم يكتف عبده الحامولي ومُحَّد عثمان عن الأخذ عن التركية والفارسية، بل أخذا عن الفن العربي القديم الذي ظلت تتداوله الأجيال في الموصل من العراق. ذكر أحمد نسيم الشاعر وكان صديق عبده وملازمه قال:

«حضر إلى القاهرة أحد فناني الموصل، وكان في مقام الأستاذ من عبده الحامولي، وظل يحضر كل حفل يغني فيه، فلم يستطع المغني المصري إلا أن يرجوه أن يريحه من حضور حفلاته. لأنه قد أتعبه وأضناه لأنه لا يستطيع إلا أن يتوخى كل ضروب الإجادة من توقيع وأداء ما دام حاضرًا لأنه يفهم الفن صحيحًا مستقيمًا. وهذا يقتضيه عسرًا وجهدًا لا طاقة له بهما».

وكان عبده ومُحَّد عثمان متنافسين، شأن كل متقاربين في الفنون وغير الفنون، كانا كجرير والفرزدق وشوقي وحافظ وعبد الوهاب وأم كلثوم اليوم. وكان عبده يفضل مُحَّد عثمان بصوته. كما تفضل أم كلثوم عبد الوهاب بصوتها.

حدثني عبد الله أباظة رحمه الله قال: مر بي عبده على المقهى راكبًا عربته، فدعاني للركوب معه قائلًا: «هيا معي إلى منزل الشنتوري المغني لمجاملته في زواج ابنته حيث سأغني هناك». قال عبد الله أباظة: "فلما أشرفنا على الحفل ألفينا مُحَّد عثمان يغني، والناس يكادون يخرجون من أثوابهم طربًا. فخفت أن يفتضح عبده إذا غنى بعد مُحَّد عثمان في أشأ أن

أصارحه ولكني قلت له متسائلًا: أتغني بعد مُحَمَّد عثمان؟ فقال: نعم وسأغني هذا اللحن نفسه". فقلت في نفسي: "لا حول ولا قوة إلا بالله".

وفرغ مُحَمَّد عثمان بين التصفيق والضجيج والتهافت والتقبيل، وجاء الشنتوري يدعو عبده للتفضل بالغناء فصعد الرجل التخت. وغنى نفس اللحن، فكان والله غناء مُحَمَّد عثمان إلى جنب غنائه كأنه نقيق الضفادع جنب تطريب الكروان، فلم يلبث مُحَمَّد عثمان أن أخرجه الغيظ عن الاتزان فصاح مشيرًا إلى عبده قائلًا (بقى الراجل ده جاي يجامل وإلا جاي يموتني).

وكان عبده لمكانته السامية في فن الغناء لا يغني للناس إلا بعد استئذان السراي الخديوية في ذلك، وبلغ من مكانته الرفيعة أيضًا أن الخديوي إسماعيل أوفده إلى إستانبول ليغني أمام السلطان عبد الحميد، وقد وضع له اللحن المعروف (مليكي أنا عبدك).

وكان هذا الرجل الفنان على حظ وافر من المروءة والبر، وهما خلتان تلازمان دائمًا كبار عباقرة الفنون، فقد كان جوادًا لا يبقي مالًا ولا يمسك يده عن معونة.

ذكر بعض معاصريه: أنه كان يعبر يومًا زقاقًا ضيقًا في مدينة الإسكندرية. فألفا امرأتين تختصمان، لأن إحداهما قد آذت الأخرى برش ماء في الزقاق لأنها اعتزمت أن تقيم حفلًا فقيرًا لابنها في مساء الغد؛ فهي تسكن التراب بالماء لتمهيد الأرض لوضع المقاعد الخشبية المتواضعة،

ولكن الأخرى لم يرضها هذا؛ فقد صاحت فيها: (يا شيخه هوستينا هو يعني إنتي حاتجيبي عبده). فتقول الأولى (ما يبعدش على الله) ويسمع الرجل الكريم هذا الحوار فتدفعه الأريحية إلى التقدم نحو المرأة الفقيرة الراجية، ويدفع لها ثلاثين جنيهًا ذهبا لتعد العدة لأنه سيحضر إليها عبده. فتجن المرأة فرحًا، وتصدق المحسن، وتضرب سرادقًا واسعًا تحضر له الكراسي الوفيرة.

ويجتمع عبده بأصدقائه ودعاته ويعلن: بأنه سيغني في المساء في حي باب سدره. وتعلم الإسكندرية كلها هذا النبأ. ويهرع الناس غنيهم وفقيرهم إلى هذا الحي الفقير من المدينة. ويبر عبده بوعده للمرأة البائسة. وتشهد الإسكندرية ليلة لم تشهد مثلها في حياتها الطويلة.

وروى الأستاذ قسطندي واضع كتاب (عبده الحامولي) هذه القصة التي تفصح عن نبل هذا الرجل ومروءته قال: مر عبده الحامولي بسليم سركيس الصحفي في مقهى إسبلندد بار وجلس معه وقال: "أنا منذ الآن تحت أمرك. فاذهب بي إلى حيث تشاء، فقد ملكتك أمري وليس لأحد سبيل على إلا أنت"، وكان الوقت عصرًا. فلم يلبثا إلا يسيرًا من الزمن حتى فاجأهما أحد الوزراء، فسلم على عبده وقال: "لقد تعبت في طلبك، وقد بحثت عنك في كل مكان، فلما لم أجدك حدثتني نفسي أنك هنا، فالحمد لله لأني عثرت بك". قال عبده: "خيرًا يا باشا". قال الوزير: "الليلة زفاف ابنتي، فأرجو أن تشرفني في إحيائها". فقال له: "آسف يا باشا لأني لست ملكًا لنفسي، فقد بعتها الليلة من سليم سركيس".

فالتفت الوزير إلى سليم وراح يرجوه في أن يأذن لعبده في حضور ليلة زفاف ابنته، ويرجو حضوره معه، فرجا سليم عبده في إجابة سؤل الباشا الوزير. فإذا كان الليل ذهب الاثنان، كما ذهب تخت عبده تحت رئاسة الموسيقي الضخم الصالح مُحَمَّد العقاد القانونجي الذي تزوج من بنت عبده بعد ذلك.

فلما أخذ رجال التخت في إصلاح آلاتهم الموسيقية، وكان من عادة الموسيقيين في ذلك العصر تقويم أوتار العيدان والقوانين في حضور الجمهور إذا بأحد الوزراء من المدعوين يهمس في أذن زميله صاحب ليلة الزفاف وكان قد لمح سليم سركيس الذي كان يحمل عليه في صحيفته. ويقول: "أنا لا أستطيع المكوث في حفل مع هذا الرجل سليم سركيس". فقال صاحب الليلة: "ولكنه هو الذي جاء بعبده إلى هنا". فأجابه: "إذا ظل سليم هنا، ذهبت أنا وكان هذا آخر عهدي بك". فاحتار الوزير ولكنه عز عليه إغضاب زميله، وذهب إلى عبده في تخته وساروه في استحياء ورجاه أن يصرف سركيس فلم يجبه عبده، الذي التفت إلى مُحَمَّد العقاد وقال: "خيش يا عقاد"، وهذا اصطلاح بين هؤلاء الفنانين (يعني ضع الآلات في أكياسها) فصمتت الآلات واندست في بيوتها، ووجم الناس وكادت تقع كارثة، ونزل عبده وهم بالانصراف، فهرع الوزير إلى الرجل الغاضب لصديقه يرجو ويلتمس ويعتذر، وعبده يأبى ويأبى، فأسرع الوزير إلى سليم، وكان غافلًا عن الأمر كله يرجوه أن يترضى عبده، فعاون سليم في الرجاء، وعبده يأبى، فلما ألحا عليه وضيقا قال: "إني أقبل المكوث والغناء على شريطة أن يخرج صاحب السعادة الوزير المحتج من السرادق في الحال".

فقبل صاحب الليلة، وبادر إلى زميله يطلب إليه في عنف أن يبرح السرادق فورًا.

وكان لعبده الحامولي صوت ذهبي فاق جميع مغنيي عصره وغير عصره، ولعل السيدة أم كلثوم هي الفريدة بين مغنيي هذا العصر التي في صوتها عناصر من صوت هذا الرجل الذي لم تسمع القاهرة في كل عهودها لصوته شبيهًا، وربما ارتفع هذا الصوت العلوي الساحر، ففات كل الطبقات المعروفة في الأصوات، والمحدودة بالآلات الموسيقية.

حدثني أبي عن الشيخ عثمان زعويل، وكان رجلًا فقيرًا طروبًا شيخًا زهد في كل شيء إلا في السماع قال:

حضر عبده إلى مدينة المنيا، وكان صديقًا لنجيب بك (باشمهندس بالمنيا) فدعاه نجيب بك إلى الغناء في ليلة مشهودة. وكان عبده يعرف الشيخ عثمان ويبره لفقره. ويحبه لطربه. فكان إذا لمحه دعاه إلى الجلوس معه في التخت. قال الشيخ عثمان: فغني عبده وارتفع صوته ثم ارتفع ثم ارتفع حتى فات كل الطبقات المعروفة في الأصوات. وعجزت الآلات عن لحاقه. وبقي محلقًا لا تلحق به آلة ولا يدركه توقيع. فإذا به ينهال على التخت باللعن والسب لتركه فريدًا في سمائه. فهنا صاح فيه الشيخ عثمان قائلًا: (يا شيخ حرام عليك دول مش قدك أنت رحت فين). وسكت الجمهور. ووقعت الرهبة. ونسي كل ذي نفس نفسه. وظلت الحال كذلك بضع دقائق فإذا صائح يصيح: وحدوه. وإذا هذا الجمع الحاشد المسلوب

الرشد يصيح في صوت واحد: لا الله إلا الله. وإذا بعبده يجهش بالبكاء. وإذا بدموعه تجري على خديه.

وعشق عبده ألمظ التي كانت تعمل في صدر صباها أجيرة تحمل اللبن والمونة إلى البنائين. وكانت وهي تحمل ثقلها هذا تغني بصوت. قال عنه المؤرخون: أنه كان من أندى أصوات النساء وأحلاها. ثم عظم شأنها وبعد صيتها. حتى أصبح لها من الشهرة ما لأم كلثوم اليوم.

وكان لعبده مدرسة في الغناء قائمة إلى اليوم، فمن خريجيها المشاهير أحمد حسانين، وإبراهيم اللقاني، والشنتورى، وأحمد عبد البارى، وأحمد فريد، ومُحَّد السبع، ومُحَّد سالم العجوز، ويوسف المنيلاوي، وعبد الحي حلمي، وأبو العلا أستاذ أم كلثوم، وصالح عبد الحي وغيرهم.

ويموت الرجل الفريد فقيرًا في حلوان مريضًا، فلا يجد أهله تجهيزه فيتقدم الشيخ سلامة حجازي ويوسف المنيلاوي يجهزانه ويحملان جثته من البيت الذي كان أهداه إليه صديقه باسيلي عريان الذي أنفق في صحبته مئات الألوف من الجنيهات.

وتتطور الموسيقى بعد ذلك من الفن الشرقي إلى الفن الحديث على يد موسيقار ضخم. ظل عهدًا طويلًا معممًا ثم خرج من جبته وعمامته إلى البذلة الغربية، وإلى ربطة سوداء كانت تتشبث بعنقه، كأنها غراب آخذ بمخنقه.

عرف الناس سيد درويش بلحنه الذي ظل يغنيه الجمهور وهو: (وأنا نازلة أدلع أملا القلل). وكانوا يتساءلون من هذا المغني المجدد الإسكندراني المسلم الذي يذهب صبيحة كل أحد إلى إحدى كنائس الإسكندرية ليسمع الأرغن فيقتبس منه ثم يصوغ ما يقتبسه ألحانًا مصرية يذيعها بين الناس.

ويحضر الموسيقار الشاب إلى القاهرة، ويختلف إلى مقاهي عماد الدين ويجلس إلى الممثلين والموسيقيين القدامى، أشباه كامل الخلعي وداود حسني، ويسمع نجيب الريحاني بالوافد الفنان فيمشي إليه ويطلب منه أن يعاونه في مسرحه إجبسيانة بألحان يصوغها في الأغاني التي يؤلفها أمين صدقي للمسرحيات التي تقدم للجمهور، ويقدم إليه مسرحية حمار وحلاوة وكانت مسرحية تزخر بشتى الاستعراض المختلف، بين فقراء من الأتراك يسألون صدقة لأن الحرب قعدت بهم عن الرزق والعودة إلى بلادهم، وبين موظفين استغنت عنهم الحكومة لضيق ميزانيتها. وبين سعاة بريد يلتمسون حلوانًا. وغير ذلك من مختلف الشئون الاجتماعية. فأفرغ الرجل عبقريته في هذه الألوان. وأعطى كل غرض لونه الخاص وأبدع في هذا الضرب التصويري أيما إبداع.

ولهجت القاهرة كلها وتابعتها مدن الأقاليم وقرأها بهذه الألحان الساحرة، وطبق اسم سيد درويش الأجواء المصرية كلها.

وتشبث نجيب الريحاني بالملحن الفذ ورفع أجره إلى مائة جنيه في الشهر وهو رقم لم يعرفه موسيقار قبله. وينفق الموسيقار المتلاف المائة في أقل من عشرة أيام على أصحابه بين المسحوق الأبيض والدخان الأزرق. وكانت عامة ألحانه يصوغها في هذه الجلسات المدوية بالضحك والتندر والتظاهر بالمحبة والفداء والعناق والقبل التي يوحي بها الدخان ويبعثها المسحوق.

وعرف مكان الرجل العبقري أصحاب المسارح فأقبلت عليه الدنيا، وأقبل عليه الأصدقاء. وأقبل هو في عنف على الدخان والمسحوق، ويضع مُحَّد تيمور مسرحية "العشرة الطيبة" ويلحن أغانيها سيد درويش فيبلغ السماء السابعة ويلحق بالخالدين أمثال بيتهوفن وشوبان.

ويستقل عن أصحاب المسارح ويعمل لحسابه، فيزداد رفعة، ويذوي فن عبده الحامولي ومُحَّد عثمان، ويسرع إلى الموسيقار العظيم جماعة من المغنيين الشباب فيدخلون مدرسته ويتخرجون عليه، ولكنهم كانوا فقاقيع لموجة جبارة عالية.

ويفتح الطريق لفن جديد يدخله الجميع، ولكنهم يضلون فيه لأن مشاعلهم دون المشعل الأعظم الذي كان يحمله سيد درويش. ويموت الموسيقار كما مات قبله كثير من العباقرة الذين أسرفوا. ويظن بعض الفقاقيع أن الموجة الجبارة كانت تستمد دفعها وجبروتها من محيط آخر غير محيطها وأنها كانت عالة على الفن الغربي، فسلكوا طريق ظنهم واحتطبوا

حطبًا أجنبيًا وأصروا على أنه من غرس أيديهم فخابوا عند الفن الصحيح ونجحوا عند العامة وأشباه العامة لدسهم في فنهم الهجين المثير للغرائز. ونسوا أن سيد درويش، كان موسيقارًا مصريًا قحًا، ولم يكن يومًا غربيًا ولا شرقيًا وإن كان أستاذًا خرج من نفسه نسيجًا وحده. ويظهر بعده على وهديه مُحَمَّد عبد الوهاب، ولكنه لم يبلغ مبلغه أبدًا في فن الألحان.

وتقوم في القاهرة مدرستان للغناء، مدرسة أم كلثوم، ومدرسة عبد الوهاب، فكل مغن بعد ذلك أو مغنية، فهو أو هي تبع لهذه أو تلك. وإن كان الإنصاف يقتضينا أن نقول: إن فريد الأطرش، وعبد العزيز محمود لهما طريقتهما الخاصة غير تابعين لهاتين المدرستين.

وفي القاهرة اثنان من الملحنين أحدهما عملاق موصلي، فيه من إبراهيم وإسحاق عناصر فنية، والثاني فنان مجيد ولكنه يحجل بين الشرق والغرب ابتغاء الكسب، هما زكريا أحمد ورياض السنباطي، وهناك ثلاثة ينتظرهم غد باسم هم: محمود الشريف، والموجي، وكمال الطويل.

الحياة الاجتماعية

الأعراس

إن حفلات الأعراس في القاهرة في كل عهودها تكاد تتشابه، فهي الخطبة وعقد القران وجلوة العروس، ولكنها من القرن التاسع عشر أخذت الأعراس تتخذ ضروبًا من الزفاف والاحتفاء لم تكن تعرفها في القرون الأولى من حياة القاهرة.

فالأعراس في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تنقسم إلى ثلاث طبقات: الأولى يحتفي بها أبناء الذوات من الأتراك والجركس المتمصرين. والمعروف عند هذه الطبقة السماح للخاطب في رؤية خطيبته (هذا في العهد الماضي، أما اليوم فقد طبق هذا العرف جميع طبقات المجتمع) فإذا أعجبته تقع المساومة في الشبكة ثم في المهر. والمعروف عند هذه الطبقة: المغالاة في المهور وذلك للتنافس بين هذه العائلات الأرستقراطية، وتكون الشبكة عادة تاجًا من الماس أو عقدًا من الماس أيضًا، أو أسورة من هذا المعدن.

وفي الفترة بين الشبكة وعقد القران تقدم هدايا بين حين وآخر، وتكون هذه الهدايا من الفساتين والروائح العطرية العظيمة الثمن، والأحذية وعلب من الحلويات الفاخرة.

وفي ليلة الدخلة تتهيأ العروس للزفاف، فإذا كانت العروس تنتمي إلى بيت مُحَمَّد علي أو إلى الحاشية الخديوية. تزف في عربة يطلق عليها اسم عربة البرنسيس زينب هانم يسوقها سائق في حلة من القصب وعلى يمينه ويساره اثنان في مثل ثوبه، وهما الجروم وتجر هذه العربة أربعة من الجياد المسكوفي. ويجري أمامها اثنان في سروالين قصيرين وعلى رأسيهما طربوشان طويلا الأزرار، وفي أيديهما عصوان طويلان، وأمام الجميع موسيقى السواري، كما تعرف على أبواب سرادق العرس موسيقى البيادة.

ويغني في السرادق الذي يكون محتشدًا بالذوات، عبده الحامولي أو مُحَمَّد عثمان، وتزف العروس إلى الزوج قبل منتصف الليل بقليل، تزفها الصرفية العالمة الشهيرة في ذلك العصر، ويكون الزوج قد ارتدى ملابس سوداء (الفراك أو الردنجوت) ويكون قد بلغ مدخل الحرملك من القصر. حيث تكون في انتظاره العالمة الصرفية والحاضرات من السيدات وعند ظهوره وسعيه إلى الداخل تلقي عليه البدرة، وهي من الذهب، وتكون عادة من أنصاف الجنيهات أو من أرباعها، ولا تزال تبدر عليه حتى يبلغ الكوشة (وهي مكان مرتفع مزركش مفروش بالحرير والقصب) حيث تكون هناك العروس جالسة، فتنهض لاستقباله ويجلس معها قليلًا وبعد فترة يتوجه الجميع إلى البوفيه المعد للسيدات فيفتتحانه[١٣].

أما الطبقة الثانية، وهي تنتظم الأغنياء من الشعب كالتجار وأصحاب الأطيان الزراعية الكثيرة العدد؛ فالزواج عندها إنما يكون

---

١٣ سيأتي في كتاب حياة البارودي، وصف أوسع لهذه الحفلات.

بواسطة الخاطبة التي تعرض ما عندها من أسماء الفتيات وعائلاتهن. فإذا كان للراغب في الزواج أم أو أخت بعث بها إلى الفتاة لمرآها. فتذهب السيدة فتستجلي الفتاة المنشودة، ثم تعود فتخبر الراغب: فإذا أعجبته أوصافها تقدم إلى أبيها أو إلى محرم من قرابتها للاتفاق على المهر.

وكان محظورًا عند هذه الطبقة أن يرى الزوج عروسه قبل عقد القران، وكانت هناك مساومة على المهر والمغالاة فيه أيضًا كالطبقة الأولى تمامًا، وفي هذه الطبقة لا يعني الزوج إلا المال والحسب، أما الجمال والعلم فهما غير مرغوبين لذاتهما. والزفاف في هذه الطبقة يكون على ليلتين متعاقبتين: ليلة الحنة، وليلة الدخلة.. والأولى في بيت العروس، والثانية في بيت الزوج. وكل يحتفل على حسب مقدرته، فقد تزف العروس الصرفية إذا كانت أسرتها واسعة الغنى. أما إذا كانت فوق المتوسط في الثراء. فتزفها بمبة كشر. وهي عالمة واسعة الشهرة، وهي خالة المطربة فتحية أحمد.

وفي الفترة بين الخطبة والزفاف تقدم للعروس الهدايا، وعادة تكون من الأطعمة، ولا بد من تقديم السمك فيها. وتزف العروس من هذه الطبقة في عربة مقفلة تستأجر لذلك (كومبيل) وإذا كانت الأسرة فاحشة الغني تحب التظاهر استأجرت عربة زينب هانم الآنفة الذكر، وتتبع العروس المدعوات في عربات مقفلة أيضًا في ذهابها إلى بيت الزوج، ولا يراها العابرون في الطرقات لإحكام الستائر المسدلة على نوافذ العربة، وعند وصولها إلى منزل الزوج يكون هو واقفًا أمام الباب فيأخذ بيدها وهي

محتجبة تمامًا (بالدواق[14]). وتستقبلها العالمة في أول السلم مع المدعوات، ويصحبنها إلى الكوشة.

وبعد العشاء في الصواني التركية يبدأ الغناء، وعند الساعة الثانية عشرة (نصف الليل). يزف الزوج أصحابه حيث يلقون القصائد والخطب ثم يصحبونه إلى باب الحريم، وهناك تستقبله العالمة بحاشيتها وتلقي عليه البدرة، وهي من أرباع الجنيهات الذهبية أو من القطع الفضية الجديدة. حتى يبلغ الكوشة ويستقبل العروس.

وكان المتبع مع هذه العوالم عند هؤلاء الأسر، أنهم لا يدفعون لهن مالًا أبدًا، إنما أجورهن يحصلنها من «النقطة» وكن يفرشن وشاحًا من الكشمير يتلقين فيه الجنيهات الذهبية من المدعوات اللاتي يعتبرن هذا العمل دينًا مستحقًّا لهن عند زواج بناتهن أو أولادهن. ومن شهيرات هؤلاء العوالم: زنوبة شخلع، وبنتها جميلة وأمينة، وفاطمة العراقية، وأنوس أم نبوية مصطفى الثعبانية الآدمية، وزوبة المتحركة، وخوخه المصرية، ونفوسه عزام.

الطبقة الثالثة

وهي طبقة أولاد البلد، ومن عادة هذه الطبقة أنها تحتفل أسبوعين قبل ليلة الدخلة، وفي أثناء هذين الأسبوعين. تقام ليال تسمى الضمم وكانوا يضعون موائد من الخشب وحواليها دكك من الخشب أيضًا

---

[14] الدواق: خمار أبيض.

ويضعون بينهم على الموائد هذه شراب الزبيب أو شراب النبيذ. وفي كل ليلة من هذين الأسبوعين تقام ألعاب. منها أولاد رابية، وهم أسرة عرفت بالألعاب الرياضية وحمل العصي على أنوفهم والكراسي على أسنانهم ومنها خيال الظل.

ويظل المدعوون يتنادرون (بالقافية) ويقوم المغنون بدور الصهبجية، أي أنهم يتغنون بمواويل بلدية وتواشيح. ويكون المدعوون غالبًا من أهل الحارة أو من الجيران القريبين من الحواري الأخرى. ودعوة الجيران إنما هي للاتقاء ودفع الأذى. فإذا هم لم يدعوا إلى أمثال هذه الأعراس أطبقوا عليها بعصيهم وبمقاعد المدعوين وأتلفوا الزينة وأطفأوا الأنوار. ولهذا كانت تصدر المحافظة أوامر إلى مشايخ الحارات ليبلغوا الأقسام عن أمثال هذه الأعراس لإرسال قوة من البوليس لحفظ النظام.

وفي ليلة الدخلة: يصحب الزوج أصدقاءه إلى الحمام العام ليغتسلوا جميعًا هناك. وتبدأ زفة العروس بالطبل البلدي ويحرس عربة الزفاف فتوات حارة العريس. وتمر الزفة على الحارات المجاورة وتقف للتحية. وتكون هذه التحية رقص الرجال بالعصي. وفي الغالب الأعم لا تمر هذه الزفة بسلام فكثيرًا ما يحدث الشجار الذي تحدث فيه إصابات بالغة بين شج وكسر.

وبعد دخول العروس منزل الزوج يبدأ زفافه حيث يسير في الشوارع وحوله باقات الورد ومصابيح الشمع ثم يدخل بالعروس، وفي الصباح يحضر أصدقاء الزوج ومعهم موسيقى بلدية لتحيته.

ومن الفائدة أن نذكر بعض الفتوات الذين كان يخشى بأسهم في مثل هذه الأعراس. وهم: بلوظة، وعرابي، وفتوة الداودية عزيزة الفحلة وزمزم. ومحمود الحكيم في الكحكيين، وحسين الصعيدي في الحلمية القديمة. ودقدق في باب الخلق. ومحمود الفلكي (وقد قتله محمود الحكيم في معركة) ويوسف شهدي في الأزبكية (وقد نفته الحكومة لأنه أجنبي) وأحمد الأسيوطي، وفيتاسيون، ومكين. وعبد الرحيم صبحي. ومُحَمَّد نافع. وخليل بطيخه في السيدة زينب. وشرف في المتولي. وكان بعض هؤلاء يصحبون أولاد الذوات للدفاع عن نزواتهم وطيشهم تلقاء أجور ونفقات شراب وفجور.

ليالي الكرنفال

كانت القاهرة تعرف صنفًا من المرح المقنع في ليال ضاحكة مرحة فاجرة أحيانًا. وقد بطلت هذه الليالي منذ قيام حرب سنة ١٩١٤. فقبل حلول عيد الفصح عند الغربيين كان الأجانب في القاهرة وبعض المصريين، يخرجون إلى الشوارع والمقاهي والمسارح، في أثواب تنكرية، بين تاريخية وعصرية، فيرقصون ويضحكون ويعبثون بالناس.

وكانت تقام في الفنادق الكبرى، أمثال شبرد والكونتننتال وهليوبوليس بالاس. حفلات تنكرية يمتزج فيها الجميع وهم مقنعون فيتعانقون ويرقصون ويتغازلون من غير أن يعرف بعضهم بعضًا، فربما لمح رجل متنكر امرأة متنكرة فأعجبه قوامها أو صدرها. أو غير ذلك من

جسمها فتأثرها وغازلها. فإذا استجابت له رفع قناعها فوجدها قبيحة عجوزًا وقد يزهد أحد هؤلاء المتنكرين في امرأة أخرى. أنكر منها زيها أو شيئًا آخر فإذا هي حسناء فائقة الجمال. وكانت تحدث في هذه الليالي مآس عائلية كثيرة تنطوي على الطلاق أو الهجر أو القتل أحيانًا.

وكان محرما على أي أحد من المارة في الشوارع أن يرفع حجابًا لمتنكر فإذا فعل ساقه البوليس إلى المخفر حيث يعاقب هناك.

وكانت تعمل مدرجات حول حديقة الأزبكية وكانت تؤجر للنظارة وكان كل مشاهد من هؤلاء النظارة يحمل كيسًا فيه فاصوليا وآخر فيه ورق ملون، ومعه جاروف صغير. فإذا بدأ مركب الكرنفال في المسير حول الحديقة. وكان ذلك يكون بين الساعة العاشرة صباحًا والغروب بادر المتفرجون في عبث وصخب ينثرون على ركب هؤلاء المتنكرين قطع الفاصوليا ويلقون عليهم الأوراق الملونة حتى تغمرهم، والكل في جزل صبياني وعبث مجنون. وفي المساء يقصد بعضهم إلى حديقة الأزبكية حيث يلهون تحت الظلال الملفوفة بالظلام في لهو برئ وغير برئ. ويقصد البعض الآخر إلى البارات والكباريهات للهو والسكر والعربدة.

حياة القاهرة النيابية

لم تعرف القاهرة حياة نيابية صحيحة في كل أطوارها، إلا ما يبشر به الدستور الجديد الصادر في شهر يناير سنة ١٩٥٦. والذي سيتغير بآخر يرمز للدولة العربية فلم يكن في العهد الفاطمي حياة نيابية قط. بل كان

حكمًا استبداديًا يباشره الخليفة إذا كان قويًا، أو يباشره الوزراء إذا كان الخليفة ضعيفًا، كذلك العهد الأيوبي والعهد المملوكي والعثماني.

وجاء مُحَمَّد علي فأنشأ المجلس العالي، وكان ينتظم ٢٤ مأمورًا للمشاورة وليس لهم رأي إنما هم موظفون لا يقولون إلا ما يقوله الوالي، ثم أخذ مُحَمَّد على في توسيع هذا المجلس فأمر أن يكون أعضاء هذا المجلس ٩٩ ينتخبون عن القرى و٢٣ يعينون من قبل الوالي. و٤ من مأموري المراكز في الأقاليم. وجعل لكل عضو راتبًا مقداره ١٥٠٠ قرشا، وثلاث وجبات من الطعام طيلة انعقاد المجلس. ومدة انعقاده شهران. ولكن مُحَمَّد علي لم يلبث أن ألغى هذا المجلس الوهمي، وكان مكان انعقاده بالقصر العالي (جاردن سيتي).

وظلت القاهرة لا تعرف برلمانًا في عهود إبراهيم وعباس الأول وسعيد حتى جاء إسماعيل؛ فرأى أن يقيم برلمانًا وهميًا تأسيًا ببعض ممالك أوروبا التي كان يهيم بتقليدها والسير وراءها؛ فأنشأ شورى النواب. وقد حسب إسماعيل أن عهد جده مُحَمَّد علي لا يزال ماثلًا في الطاعة للولاة، وأن المجلس الجديد لا يكون إلا كما كان مجلس جده العالي.

ولكنه أخطأ؛ فقد برز له في هذا المجلس البالغ أعضاؤه ٧٥ عضوًا كلهم منتخبون، رجال أحرار يقاومون عسفه ويناهضون استبداده. فلما أراد الخلاص من هذا المجلس أصدر دكريتو عام ١٨٧٩ بحله. ولكن

النواب وقفوا لهذا الدكريتو موقف ميرابو في ملعب التنس عندما جاء رسول الملك لويس السادس عشر.

وقد نجح شريف باشا الرجل الحر في إعادة المجلس، وظل يتجاذبه استبداد إسماعيل وغباء توفيق، وقد مكث ثلاثة عشر عامًا بين أعاصير أهواء بيت مُحَمَّد علي، والوزراء الأتراك، وقضى على هذا المجلس قضاء مبرمًا عند دخول المحتل سنة ١٨٨٢.

ويوعز الإنجليز إلى توفيق في إقامة ثلاثة مجالس، هي أشبه بمجلس الدوما في عهد قياصرة الروس، وهي: الجمعية العمومية، ومجالس المديريات، ومجلس شورى القوانين، وكأنها مجالس قد أقيمت للزينة فقط.

وأهم هذه المجالس: مجلس شورى القوانين، وكان يؤلف من ٣٠ عضوًا فقط ١٤ منهم معينون.. و١٦ منتخبون. وكانت الجمعية العمومية التي تشرف على المجلسين الآخرين تؤلف من ٨٤ عضوًا والنظار الثمانية وأعضاء مجلس شورى القوانين و٤٦ عضوًا منتخبًا، ولكن هذه المهزلة لم تلبث أن انقضت سنة ١٩١٢.

ورأى الخديوي عباس كما رأى الإنجليز أن الوعي القومي قد نشط، وأن عهد مصطفى كامل قد أيقظ في الشعب الحرية فمنح الشعب الجمعية التشريعية، وهي أوسع مدى وأبعد أفقًا من مجلس شورى القوانين، وهي أقرب إلى البرلمان منها من مجالس الشورى السابقة.

وقد انتظمت هذه الجمعية التشريعية الثمانية النظار، وسبعة عشر عضوًا معينًا وستة وستين عضوًا منتخبًا. منهم الوكيل الثاني. أما الرئيس والوكيل الأول فهما معينان، وكانا أحمد مظلوم باشا وعدلي يكن باشا. وكان سعد زغلول الوكيل المنتخب. وقد برز بمواقفه الوطنية في هذه الجمعية التي لم يقدر لها البقاء إلا أشهرًا قليلة لقيام الحرب سنة ١٩١٤ وإن ظلت قائمة رسميًا.

وظلت القاهرة ترزح تحت حكم الإنجليز والسراي والوزارة. فلا سائل ولا مسئول، حتى هبت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وهب الشعب لاستقلاله وحريته، ورضخ الإنجليز وظفرت مصر باستقلال منقوص، فأقيم البرلمان المصري منحة من الملك فؤاد في ١٥ مارس سنة ١٩٢٤. وذهب الملك لافتتاح المجلس المؤلف من الشيوخ والنواب، ومجلس الشيوخ يتألف من ١٤٧ عضوًا يعين الملك خمسهم وينتخب الشعب الباقين، ويتألف مجلس النواب من ٢٦٤ عضوًا منتخبين من الشعب. ولم يؤد مجلس النواب هذا رسالته كاملة قط، فقد كان يرزح تحت ثقل الحزبية، ويتوجه حيث يتوجه زعيم الأغلبية فيه، وكان الإنجليز يرقبون نقاشه فإذا أنسوا فيه ما يمس سلطانهم برزوا وهددوا واحتجوا بالأسطول، كما فعل لورد لويد المندوب السامي البريطاني.

وقد تعرض هذا المجلس لأعاصير الاستبداد في كثير من أدواره، فقد عطله زيوار باشا رئيس مجلس الوزراء سنة نزولًا على رغبة الإنجليز والملك فؤاد. وقد حدث أن بعض دوراته لم تقم إلا ساعات قلائل، وذلك لأن

رأي الأمة جاء مخالفًا لرأي السراي. ثم جاء مُحَمَّد محمود باشا فاستصدر عام ١٩٢٨ مرسومًا بوقفه ثلاث سنوات ومعه الدستور أيضًا، ولكنه لم يستوف مدة حبسه فقد عاد ثانية سنة ١٩٢٩.

وظل يحجل بين رضى السراي والإنجليز وسخطهما، حتى جاء رجل جرئ لا يبالي بالشعب ولا يعرف إلا ما يعتقده هو؛ فقضى على الدستور والمجلسين، وأقام هو دستورًا جديدًا ضيقًا وبرلمانًا يعرف معنى الطاعة، وكان أقرب للجمعية التشريعية المنقرضة منه إلى البرلمان الزائل.

ولكن الشعب الذي جاهد وضحى وخاصم الإنجليز والطغاة من حكامه، أبى دستور إسماعيل صدقي وبرلمان إسماعيل صدقي المستحدثين، وظل يقاوم ويبذل من دمائه وماله الكثير. حتى عاد الدستور القديم والبرلمان القديم، ولكنهما عادا لمنفعة الحزبية ولتأييد المطامع والشهوات فقد كان هؤلاء النواب الذين خدعوا الشعب لانتخابهم أداة فساد ورشوة واستغلال مصر لهم وحدهم للثراء والنفوذ وقضاء الحاجات لهم ولمن يلوذ بهم ولمن يدفع الثمن.

وصار كل حزب له الأغلبية في هذا المجلس المنكود الحظ يحكم كما يشاء هو لا كما تشاء مصر، وقد سانده هذا القطيع المنتفع المستغل المسمى بالنواب المحترمين. وكان الوصول إلى مقاعده ميسورًا لمن معه مال، حتى لو كان من أجهل الجهلاء وأغبى الأغبياء، وكان المال المدفوع يتقاضاه باذله أضعافًا مضاعفة عند الجلوس على المقعد الجلدي الوثير يتقاضاه من

حاجات المضطر وشهوات الطامع وطالب العمل. وكان الوصول إلى مقاعده ميسورًا أيضًا لكل صعلوك هتاف يسجد للزعامة المقدسة. ويعرف كيف ينحني وكيف يتظاهر وكيف يسير في الركاب، وظل هذا الباطل المستحدث من الحق يفسد الضمائر ويلعب بالرجال ويبث العداوات ويقطع الأرحام وينهك الوطن ويسيء إلى مصر حتى زال سنة ١٩٥٢. وفي يناير سنة ١٩٥٦ بشر قائد الثورة جمال عبد الناصر بدستور جديد ينتظم رغائب الشعب كلها وهو مرجو الخير إن شاء الله، وقام مجلس الأمة منذ يوليو عام ١٩٥٧.

ثوراتها

عرفت القاهرة في حياتها الطويلة ثورات عديدة، فهي لم تخضع للأجنبي ولم ترض بالذل إلا ريثما تستعد لدفعه ومقاومته. فقد عرفت الثورة العسكرية في العهد الفاطمي وسيأتي ذكرها في القسم الثالث. وعرفت الثورة المدنية في عهود الأيوبيين والمماليك والعثمانيين وبيت مُحَمَّد علي. ولكنها كانت ثورات ينقصها الأهبة. ويعوزها السلاح والقيادة الحازمة. فكم شهد ميدان الرميلة. (ميدان قلعة صلاح الدين) من رؤوس معلقة وأرجل تتأرجح في الهواء في أعواد المشانق لثوار هبوا لدفع الظلم، ولكن الظلم كان أقوى منهم وأوفى عدة، فلذلك كان ينتصر دائمًا وتنطفئ الثورة حتى تشب مرة أخرى.

ولم تشهد القاهرة أعنف من أربع ثورات، الأولى: الثورة على جيش نابليون الغازي. والثانية: الثورة العرابية، والثالثة: ثورة ١٩١٩، والرابعة: ثورة الجيش عام ١٩٥٢ منهما ثورتان عسكريتان وأخريان مدنيتان.

وقد أثرت هذه الثورات الأربع في مصير القاهرة تأثيرًا بعيدًا، فالثورة الأولى: أزالت عهود المماليك وعجلت في طرد الفرنسيين، ومكنت لأهل القاهرة من الوثوب على الدولة العثمانية الجاثمة في أفنية القلعة من مئات السنين فقد دفع الشعب النجاح فيها إلى الخلاص من هؤلاء الولاة الأعاجم بثورة أخرى أطاحت بهم وجاءت بذلك الألباني الوحشي النظرة فمكث هو وأبناؤه قرابة مائة وخمسين عامًا، حتى أطاحت بهم ثورة أخرى.

وكان الفضل الأكبر في إثارة الثورة الأولى يرجع للأزهر فهو الذي هيأ الشعب للثورة رغم تقرب نابليون لهذا الشعب وتمسحه بالدين الإسلامي، وحمله الثقافة الفرنسية الرفيعة إلى القاهرة.

ولكن الأزهر الذي كان يغضب للدين والدنيا معًا، والذي قبل تقرب نابليون حينًا من الزمان. عاد فرفض هذا التقرب، وفطن لهذا الدجل البونابارتي، وكان سلطان الدين في هذا العصر قويًا. ولم يألف شعب القاهرة الإسلامي الاستعمار المسيحي، وكان من الذلة ومن الكفر: الخضوع لحاكم من غير ملته.

وقد كانت وطأة الفرنسيين أخف من ثقل الدولة العثمانية، ولكن الشعب كانت ترضيه المظاهر، عندما يرى حاكمًا يحضر الجمع في المساجد

الجامعة ويراه يصوم رمضان، فهو من دينه وإن كان يسومه الخسف. ولكن الفرنسيين كانوا يختلفون تمامًا، فصلاتهم في الكنائس وطعامهم لحم الخنزير الحرام في الإسلام، وشرابهم الخمر التي هي أم الكبائر عند المسلمين؛ فكانت الثورة عليهم ثورة الإسلام على المسيحيين. فالموت فيه استشهاد في عرفهم، ولذلك هبوا كلهم لطرد الأجنبي المسيحي تحت قيادة شيوخ الأزهر، كالسيد عمر مكرم الذي ألب الشعب المصري عليهم. كما ألب بعد ذلك على الولاة العثمانيين وغيره من علماء هذه الجامعة القديمة، وكانوا عونًا للجيش التركي المبعوث لطرد هؤلاء الفرنسيين. ولم يستطع الجيش الفرنسي البقاء في هذا الأتون المضطرم بنار التعصب الديني والوطني، هذا التعصب الذي أطاح بقائدهم كليبر وجرعه الموت حتى أصبح الجيش الفرنسي يغضب على قائده الجديد مينو الذي خلف كليبر لأنه أراد البقاء وضم مصر إلى الجمهورية الفرنسية.

وانتصرت الثورة في طرد الفرنسيين وإن كانت قد استرجعت ظالمي الشعب من الأتراك العثمانيين التي لم تمهلهم إلا قليلًا حتى ثارت عليهم أيضًا وأقامت نظامًا لقيت منه كثيرًا من الويلات. وإن كان الشعب قد عرف فيه بعض الاستقرار واستراح قليلًا من هذه القوى المتنازعة من العثمانيين والمماليك والولاة.

وتغيرت الحال واستقام في القاهرة لون آخر من الحكم في رجل ارتضاه الشعب المنهوك تحت طحن القوى المتنازعة، ولكنه كان قد أخطأ

الاختيار؛ فالسلطة والمال والنفوذ في أياد أجنبية. وليس للمصريين إلا السوط والسخرة والفتات المتساقطة من موائد الأتراك والألبان والجركس.

ويستبد الرجل المختار من الشعب بالأمر وحده، ويسلب الفلاح أراضيه، وينهج على نهجه خلفاؤه، ويضيق الشعب ثم يضج ثم تضطرم صدور بعض أبنائه، من العسكريين، فتهب الثورة الثانية بقيادة أحمد عرابي: الضابط الفلاح الشرقاوي.

يرى أحمد عرابي استبداد السادة والعبيد بالحكم، وبالجيش وبالنفوذ دون المصريين، فالأتراك والألبان والجركس لهم المناصب العالية في الجيش وغير الجيش، ويساند عرابي نفر من إخوانه الضباط. ويتقدمون إلى الخديوي الضعيف الذي أورثه أبوه أثقالًا من الإسراف والفوضى والديون: بالمساواة في الرتب بين المصريين والأجانب، وقد عرف الجيش القوة قبل ذلك، وعرف له الولاة والوزراء الخطر في الوثوب.

عرف له نوبار وثوبه ولكمه وضربه، يوم اختير رئيسًا للوزارة في عهد إسماعيل، وقد تأخرت عن الضباط مرتباتهم عدة أشهر، وعرف له إسماعيل تلك القوة الكامنة والتي كان يريد استغلالها في المقاومة يوم عزله، ولكنه خذله.

ولم يسمع توفيق هذه الالتماسات، ولم يقرها، ورأى أن يركب رأسه، واستمع النصيحة الأجنبية التي كانت تبيت أمرًا لمصر، وتعد العدة

لاحتلالها وحيازتها بعد شق القناة الطريق القريب إلى الهند ألمع جوهرة في تاج فيكتوريا الملكة السعيدة الحظ.

ولم يكتف الخديوي الأحمق بالإهمال واحتقار المطالب العادلة، بل أمر بالعقاب، ولم يكن عرابي وأصحابه سذجًا، كما قدر ذلك الخديوي الغافل بل كانوا أبعد فطنة منه، فقد عرفوا المكر التركي واستعدوا له. فعند ذهابهم إلى رياض باشا ناظر النظار، وتهديده لهم، أجمعوا أمرهم على حذر، واجتمع مجلس النظار المؤلف من وزراء أتراك وشركس لمعاقبة عرابي وصاحبيه: علي فهمي وعبد العال حلمي، وأمر بالقبض عليهم ومحاكمتهم عسكريًا.

وتعيد ذاك الشركسي الضيق الأفق البليد الذهن: عثمان رفقي ناظر الحربية علة العلل، عندا لهؤلاء النظار، بالقبض على الضباط وتقديمهم للعقاب، ووجد الوسيلة في الغدر عند استقدام هؤلاء الثلاثة إلى قصر النيل للتظاهر بالتشاور في شأن زفاف الأميرة جميلة شقيقة الخديوي، وقدر أنهم إذا دخلوا عرين الأسد استطاع القبض عليهم. وأحس عرابي وصاحباه بالمكيدة، فأعدوا العدة لإحباطها. وأقاموا آلايًا من الحرس، بثكنات الحرس بميدان عابدين، وصحت هواجس الثلاثة، فقد أمر الشركسي الغبي بالقبض على الثلاثة، وهرع الحرس لنجدتهم، ووقعت الوحشة بين الجيش والخديوي. وخضع الخديوي في أول الأمر لمنطق الثورة، ولكنه لم يلبث أن عاوده خداع أسرته فنقض ما أبرمه الجيش معه.

وطار صوت عرابي في الأمة وأقاموه زعيمًا وطنيًا، وشجعته هذه الثقة، فبرز إلى الخديوي في قوة أمنع من القوة الأولى، وتحد فاق سلفه؛ ففي ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ حضرت جميع الآلايات الموجودة في القاهرة وضواحيها بسلاحها، واصطف الضباط والجنود، وانخدع قلب الخديوي وخال أنه إذا نزل الميدان ووقف بين هؤلاء الجنود الفلاحين الذين ضربت آباؤهم بسياط بيت مُحمَّد علي، فإنهم لا يلبثون أن يهتفوا له ويطيعوا ويتفرقوا، ويبوء عرابي وأصحابه بالإخفاق، ولكنه خاب فأله، فقد ثبتت الجنود تحت قيادة الفلاحين من ضباطهم، ووقف ذلك العملاق الطويل الوجه المصري القح أمام الألباني الحاكم الملتحي، ويسأل الألباني المصري عن حضوره مع الجيش إلى الميدان، فيجيب المصري الشجاع: لنا طلبات لا بد من إجابتها، فيتجاهل الألباني ويستفهم، فيعيدها المصري على المسامع التي آثرت الصمم قبل ذلك، ويزيد في مطالبه: عزل رئيس الوزراء التركي رياض وإعادة مجلس النواب إلى الأمة، فيرجع إلى الجبان كبرياء آبائه، ويرفض ويقول: هل أنتم إلا عبيد إحساننا، فيجيبه الفلاح الشجاع: "نحن لسنا عبيدًا ولا نورث بعد اليوم".

واشتد الجدل، وخاف القنصل الأجنبي أن يقتل الفلاح الألباني، فنصحه بالانزواء واللجوء إلى السراي، واشتدت الأزمة ورضخ الخديوي لمطالب الفلاحين لأول مرة، منذ تولي جده المجنون حكم مصر.

وتولى شريف باشا رياسة الوزراء باختيار العرابيين، وأعاد الرجل إلى الأمة مجلس النواب، وسار في طريق الاعتدال والرفق، ولكن عرابي بمشورة

محمود سامي البارودي[١٥] الشاعر الأشهر، والذي كان وزيرًا للحربية في وزارة شريف، أبى هذا الاعتدال وذلك الرفق ووسوس إلى العرابيين، فأحرجوا شريفًا حتى استقال، وخالفه البارودي الطامع في هذا المنصب.

وزادت الهوة بين الوزارة التي كان أحمد عرابي وزيرًا الحربية فيها، والذي كان له الأمر كله في توجيهها، وبين الخديوي توفيق، وقد نجمت مؤامرة من الضباط الجركس المسلوبي الامتيازات والسلطة، والذين أصبحوا تحت قيادة أحمد عرابي الفلاح المصري، فأحس عرابي بها وأراد معاقبة مدبريها بأشد عقوبة، ولكن الخديوي أبى أن يصدق على هذه العقوبة، فشجر الخلاف بين الوزارة العرابية والحاكم الألباني، وكادت تقع كارثة، ولكن العرابيين تساهلوا في تشديد العقوبة وجنحوا إلى اللين، فسارت السفينة في طريقها، ولكن الأعاصير كانت تتجمع من قريب لإغراقها.

وترقب دولتا الاستعمار: إنجلترا وفرنسا، الحالة، وتظهر خفاياهما رويدًا رويدًا، ويرسلان أسطولًا بحريًا بدعوى حماية الأجانب، ويمثلان قصة الذئب والحمل، ويدعيان أن المصريين مفتتون، وتبعث تركيا المنهوكة ضعفًا برسول من عندها، ليرجع الأساطيل الأجنبية إلى مرافئها، ويوجب على عرابي وأصحابه الطاعة، وتبقى مصر تابعة خاضعة للدولة العلية، فلم يصنع شيئًا غير حضور المآدب الخديوية الفخمة والتذبذب بين العرابيين وتوفيق.

---

[١٥] ستذكر هذه الثورة بإسهاب في كتاب حياة «البارودي».

ويستقيل البارودي خشية العاقبة وتضطرب الأمور ويعمل الذئب الإنجليزي على التحرش بالحمل المصري، ويفلت الخديوي فجأة من قبضة الجيش في القاهرة، ويلجأ إلى الإسكندرية قريبًا من الأسطول لحمايته عند الحاجة إلى هذه الحماية.

ويتذرع الذئب الإنجليزي بقصة ذلك المالطي الذي أبى أن يدفع أجر المكاري، فكان جزاؤه القتل من رجل وطني يهضمه أجنبي قذر حقه، ويتذرع أيضًا بترميم الحصون فيضرب الإسكندرية في يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ فيدكها دكًا بعد أن أجلى عنها سكانها من الأجانب. وتحترق الإسكندرية، وينبري الجيش تحت قيادة عرابي للدفاع عن الوطن، ويتقهقر من الإسكندرية إلى كفر الدوار ويتخذها معقلًا.

ويحتال الذنب الخادع على شريكه في الاستعمار حتى يتركه وحده للفوز بالحمل، ويعلن عرابي خلع الخديوي، ويسوق الجنود والمعدات إلى كفر الدوار لصد المغير، ويعلن الخديوي عصيان عرابي، كما يعلن ذلك سلطان تركيا الموسوس عبد الحميد.

ويقيم عرابي الاستحكامات في معسكره بكفر الدوار، ويناوشه الإنجليز، فيجدونه صلب العود، فيستنجدون بلندن لإسعافهم بمدد وفير، ويعجز الإنجليزي عن اختراق خطوط عرابي في كفر الدوار، فيتسللون إليه في مأمنه حتى يهزموه. فقد أشار محمود فهمي باشا، وكان مهندسًا قديرًا على عرابي أن يعلم القناة حتى لا ينفذ الإنجليز منها إلى الميدان الشرقي،

حيث كانت هناك قوة قليلة العدد معسكرة في التل الكبير فيأبى عرابي الاستماع إليه، ويسمع لديلسبس الفرنسي الأفاق الذي يعطيه موثقًا خادعًا بأن الإنجليز لن تمس القناة ولن تتخذها معبرًا إلى الميدان الشرقي.

وينحدر الإنجليز إلى القناة بقوتهم الكبرى، ويدهمون القوة الضعيفة المعسكرة في التل الكبير، ويوهمون عرابي أنهم سيهاجمونه في الميدان الغربي من كفر الدوار ويحاول سد الثغرة المتدفق منها المدد الإنجليزي في الميدان الشرقي ولكنه يعجز لصعوبة المواصلات ولبعد الميدانين بعضهما عن بعض ويواجه الإنجليز بقواهم العديدة قوة عرابي في التل الكبير ويثبت الجيش الباسل القليل العدد، ولكن الخيانة لم تلبث حتى عرضت الرجال الأبطال إلى هزيمة منكرة: خيانة بعض قواد عرابي وكثير من الأعراب الذين قاموا بمهمة هدي الإنجليز إلى الطرق في الصحراء لمداهمة الجيش المصري.

ويهرع عرابي إلى القاهرة ويستشير أعيانها وما بقي معه من قواد في الدفاع عنها فيستمع له القليل ويلوي عنه الكثير آذانهم فيسقط في يده ويستسلم لعدوه هو وأصحابه ويدخل الإنجليز القاهرة ويعكرون في العباسية. ويفرح الخديوي الخائن بنصر الأجنبي ويعتزم الفتك بعرابي وأصحابه ويرسل إليهم في سجونهم الخصيان يبولون عليهم وهم في أغلالهم لا يستطيعون عن أنفسهم دفعًا.

ويسعي الرجل الإنجليزي العظيم القلب المستر ويلفرد بلنت الذي كان يناصر الحرية في عرابي إلى الدفاع عنه وجمع المال له ولأصحابه وإقامة

محامين من الإنجليز لمعاونته وتحويل محاكمته من محكمة مصرية إلى أخرى إنجليزية، ويحكم عليه وعلى أصحابه بالموت الذي استبدل بالنفي المؤبد إلى جزيرة سيلان. وفي ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٨٢ أعد لهم قطار استقلوه من ثكنة قصر النيل لنقلهم إلى السويس فركبوه هم ومن اختاروه من الأهل والخدم. وفي ٢٨ ديسمبر ركبوا الباخرة التي أقلعت بهم إلى سيلان فوصلوها مساء ٩ يناير سنة ١٨٨٣.

وفي يوم ١٩ مارس سنة ١٨٩١ توفي الرجل الثاني في الثورة عبد العال حلمي بكولومبو. وفي فبراير سنة ١٩٠٠ أذنت الحكومة المصرية لطلبة عصمت الرجل الثالث في الثورة بالعودة إلى مصر لاعتلال بدنه فمات عقب وصوله بقليل. وفي كندي عاصمة سيلان مات محمود باشا فهمي المهندس الذي عصا عرابي أمره فوقعت الكارثة. وفي عام ١٩٠٠ دفن معه يعقوب باشا سامي. وفي هذه الجزيرة فقد البارودي الشاعر نور عينيه ورجع إلى الوطن سنة ١٩٠٠. وفي ١١ يونيو سنة ١٩٠١ عفا عباس الثاني عن عرابي وصاحبه علي فهمي، ومات عرابي في ٣١ سبتمبر سنة ١٩١١ واستكانت القاهرة للحكم الأجنبي أعوامًا طويلة استكانة قلقة حتى هبت ثائرة غاضبة سنة ١٩١٩.

هذا الشاب النحيل يزعج الاستكانة التي فرضها الاحتلال الأجنبي على البلاد وعاونه عباس الثاني مستسرًا ثم خذله بعد ذلك ولانت قناته للسير الدون غورست المعتمد البريطاني.

وجاء مُحَمَّد فريد الفريد في تضحيته وأزعج هذه الاستكانة أيضًا ومعه عبد العزيز جاويش، وأحمد فؤاد والصوفاني، وأمين الرافعي، وحافظ رمضان، وإبراهيم الورداني، وإمام واكد، وعبد الرحمن الرافعي، وعبد اللطيف المكباتي، ومصطفى النحاس الذي نكث بعد ذلك. وحافظ عفيفي المرتد عن مبادئه، ومحجوب ثابت الطالب الشهرة، وفكري أباظة وغيرهم من الكهول والشباب.

وهذا الشعب يتعلم ثم يتعلم على الرغم من هذا القسيس الاستعماري دنلوب، وهذه الحرب قد طحنت البلاد بأثقالها فغلة الفلاح مسلوبة للسلطة العسكرية بالسياط والحبس والإهانة وأبناؤه يساقون إلى رمال الصحراء المشتعلة تحت وهج الشمس المحرقة يذبحون ويقتلون ويؤسرون. ويعز القوت والوقود في المدن والأقاليم، ويجوع الشعب ويعرى، ويضيق عليه في الروحات والغدوات في الليل والنهار ويعيث فليبيدس وأعوانه في البلاد فسادًا ويقدمون للسجون الأحرار وغير الأحرار. وتقلع السفن بالمنفيين إلى مالطة. ويجول الجنود الأستراليون في أحياء القاهرة ينهبون ويشيعون الأذى، ويحرقون الدور ويعتدون على الأعراض والأموال.

ويأذن الله بالنصر للحلفاء، ويعلن الرجل المخدوع إلسون النبي المزيف أخاديعه الأربعة عشرة، وتنخدع الشعوب وفيها مصر. وفي ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ينطلق ثلاثة رجال يمثلون التجربة والذكاء والغنى ويسألون المندوب السامي العسكري في استقلال مصر ورفع الحماية عنها والسماح لهم بالسفر إلى باريس لحضور مؤتمر فرساي مؤتمر حرب ١٩١٤

الذي زعموا أنه مؤتمر سلام، ذلك المؤتمر الذي حمل من الجريمة أكثر مما حملت الحرب الواضعة أوزارها من قريب.

فيأبى الإنجليزي المستعمر السماع، وينصرف الثلاثة وقد أزمعوا أمرًا خطيرًا أشاعوه في البلاد فهبت الأمة تؤيدهم، وهبت الحكومة تؤازرهم وهبّ المستعمر يقاومهم، وأبت مصر إلا أن تدفع عن حقها، وإلا أن يسافر وفدها إلى باريس لإعلان حقها في مؤتمر الصلح.

وتقع الكارثة ويسرع الأجنبي الأحمق في إشعال نار الثورة الكامن لهيبها في الصدور. ويقبض على أربعة من رجالات مصر أنس فيهم الحزم والذكاء والعناد. ويطوّح بهم إلى مالطة التي عرفت من المصريين رجالًا أحرارًا.

وينفجر الرجل المقفل على السخط والتبرم والظلم، ويعمد الطلبة إلى التظاهر، والعمال إلى العنف، والفلاحون إلى تخريب المواصلات، وتعمل الأسلحة التي لا تزال تقطر من دماء ضحايا الحرب في الصدور الباسلة، فلا تتراجع ولا تنهزم، فهي دائبة الكر والصراع.

ويغتلي حصن الثورات القديم بالثوار يؤمونه في العشايا، ويقوم رجاله المعممون على ذؤابة منبره بالتحريض وعلى التضحية بالدم والمال. ويشهد مسجد جوهر مشهدًا لم يألفه في حياته. يشهد طيالس سودًا وعمائم سودًا وصدورًا سودًا تتأرجح عليها الصلبان من الصفر تعتلي هذا المنبر الذي لم

يشهد إلا العمائم البيضاء. ولم يسمع على درجاته إلا الله أكبر والصلاة على النبي.

يسمع هؤلاء الإخوان في الوطنية يرتلون عقيدة الوطن ويكبرون باسم مصر، وتأتلف القلوب والأيدي والأغراض، وتستحيل الأمة كلها إلى فرد واحد. يطالب بالاستقلال، ولا يعنيه الثمن المدفوع في هذه السبيل.

ويرتجف الأجنبي من هذه العزائم المؤتلفة لأول مرة في حياته منذ عام ١٨٨٢ فيطلق الزعماء الأربعة من منفاهم، وينطلق أول نصر في الجهاد، وتصير مصر إلى الأمام، وتسري الأيدي المسلحة في الظلام للاغتيال، فتتهاوى الجنود والمدنيون من الإنجليز صرعى، وتفتك الجنود بالشعب الباسل؛ فيحمل ضحاياه على الأعواد في مشاهد حافلة من الرجال والنساء من كل الطبقات.

ويحار الأجنبي ويحاول أن ينفذ إلى هذا الإجماع من منافذ الإغراء بالسلطان والأموال ليفضه شيعًا وأحزابًا فلا يستطيع.

وينقسم الوفد في باريس على نفسه؛ فصدقي غاضب على سعد، وعبد العزيز فهمي لا تقوى أعصابه الثائرة دائمًا على مواجهة رئاسة سعد وخيلائه ولكن الشعب لا يعرف زعيمًا إلا سعدًا، ويغضب مع زعيمه على الخارجين عليه.

وتشهد القاهرة أعظم استقبال شهدته في حياتها الطويلة؛ فالزعيم قادم من باريس، بعد جهاد لم يكتب له النصر بعد، وبعد أن أبى أن يسمع للمنر الموفد من الحكومة الغاصبة إلى الشعب المصري ليخادع ويراوغ؛ فالجموع متراصة واليوم كله حشر والأصيل قرب أو كاد والعربة السوداء المفتوحة الغطاء يقف على أسفل مقعدها رجل مهيب كأنه أحد آلهة الإغريق القدامى يلتفت يمنة ويسرة رافعًا يده اليمني إلى رأسه معلنًا شكره. والعربة تكتظ بالحاشية من أنصار الزعيم ومن محبيه. وعلى حيزومها جلس ذلك اليوزباشي الأمي بشاربه الصاعد المفتول الذي كان يومًا حاجبًا في وزارة الحقانية ورفعه إخلاصه لحسين رشدي إلى درجة ضابط، ذلك اليوزباشى الوفي الطيب عبد المنعم الذي كان يشيع ضحايا الإنجليز من المصريين في مشاهد رهيبة، ويمنع الضباط الشبان المشيعين من الفرار مناديًا فيهم بالثبات، متحديًا عربات الإنجليز المصفحة ومدافعهم المشرعة المسددة إلى الصدور.

وتعمل الطبائع التي لا تزال تتردد في بعض جوانح رجال هذا الشرق العربي ما عجز عنه الأجنبي فتتفرق الكلمة، وتترك الوحدة شيعًا وأحزابًا، ويكون حب الرئاسة أظهر هذه الطبائع وأقواها سلطانًا. ويقع الخلاف على رئاسة مفاوضة الإنجليز، فسعد في شبرا ينطق بأول الخلاف، ويستشري الخلف، فيضحك الأجنبي المتربص مسرورًا، ويسم أكثر الشعب عدلي بالخيانة.

وينجم حزب الأحرار الدستوريين، فيتولاه ذلك الزعيم المترف الذي لا يكاد يبرح فراشه كسلًا وفتورًا، وإن دعي بالزعيم النبيل عدلي يكن.. وتنتج الثورة على رغم خلاف زعمائها: الدستور والبرلمان واستقلالًا منقوصًا وحرية الصحافة والسفور للمرأة التي ظلت قرونًا محتجبة خلف الأقنعة السوداء والبيضاء. وتدفعها إلى الاختلاط بالرجال الذين كانوا وحوشًا مرهوبة منها، وتطلق إسارها من الجهل وتدفعها إلى دور العلم، والدراسات العلمية والفنية، والكتابة في الصحف وعقد الجمعيات وافتتاح النوادي والمشاركة في طلب حقوق الأمة والتعرض لرصاص الإنجليز وعصى البوليس المصري المدفوع من وزراء يتصيدون حظوظهم من الأزمات.

وتنتج الثورة التوسع في دور العلم ونشر الثقافة ورواج الصحافة وازدهار الأدب والعلوم، كما أنها تنتج شرورًا غير قليلة منها غرور الشباب، وانطلاق الشهوات إلى المنافع والمغانم وقطع الأرحام وانقسام الأسرة الواحدة بعضها على بعض والتزوير في الانتخابات المفضية إلى البرلمان وإحلال الناشئين مكان الأكفاء في وظائف الدولة وإحداث العداوات بين أبناء الوطن الواحد. وتنصيب وزراء إمعات، واستعداد بعض الزعماء الإنجليز على إخوانهم المصريين ليفوزوا بالحكم. والإتجار بالوظائف، وتقديم التافهين، وغير ذلك مما يحسه كل من عاصر هذه الثورة العظيمة ثورة سنة ١٩١٩ التي كانت نعمة كبرى ونقمة صغرى.

وينسى مبادئ الثورة الكبرى زعماؤها ويتهافتون تهافت الذباب على سكرة الحكم التي يلوّح لهم بها فؤاد وفاروق فيصطخبون ويتزاحمون ويتساقطون في مهاوي الذل والضعة وفقدان الكرامة.

ويلعب بهم الطفل الضخم الجاهل الفاجر، فكلهم مكب على يده الملوثة بالحلواء المسمومة، يقبلها ويمسح جبينه بها ويركع على القدمين اللتين لم تمشيا إلى رشد قط ولم تعرفا إلا الملاهي في القاهرة والأركان الموبوءة بالإثم والفجور وتسوء سمعة الأمة ويضعف كيانها وينصاع جيشها مسوقًا بيد قواد تلمع أكتافها بالمدافع والسيوف والتيجان وتنطفي ضمائرهم بما دخلها من رشو الرتب، وتقدم باطل على غيرهم من الأكفاء الأحرار وبما يسوء الحر ويرضى النذل الخسيس.

ويشعل الفاجر حربًا لا سلاح لها في يد ولا عدة في أوعية وتصفق له الأصنام ذو المدافع والسيوف والتيجان ويسوق لها الضباط الأحرار والجنود الأحرار إلى الذبح والقتل والأسر بسلاح فاسد وذخيرة فاسدة سرق أثمانها الفاجر طمعًا ورغبة في الثراء الفاحش، ويهب الشعب غاضبًا لوطنه وتحترق القاهرة ويندلع اللهب ويبلغ الفاجر بغيته في إرضاء المحتل الجاثم على ضفتي القناة.

ويكتم ليل القاهرة سرّ هؤلاء الشبان الضباط المؤتمرين الساخطين على البغي والفجور والانحلال والأحزاب.. هؤلاء المجتمعون في صمت في الغرف المقفلة في بيوت لا تنم على زوارها وتبلغ المؤامرة كمالها. يساندها

أحرار من الوطنين وتبرر في ليلة من ليالي الصيف الرقيقة النسيم وثب وثبة الخبير الجريء الذي لا يبالي وتعتقل المدافع والسيوف والتيجان الغافلة اللاهية إلا عن الملق واستزادة المنافع والنفوذ. ويذيع مذيعها في دار الإذاعة المصرية النبأ العظيم فيذهل الناس وتقوم الساعة وينطلق الشعب مجنونًا ثائرًا فرحًا يصفق ويهلل وتقع الواقعة وينصاع الخليع الفاجر الذي لم يدر في سمعه كلمة (لا) أبدًا، وتنخلع قلوب الزعماء وأشباه الزعماء وحواشيهم ونوابهم ومصفقيهم.

وتقام المحروسة التي أقلعت بإسماعيل قبل ذلك بالضخم الأحمق المستبد وقد جللها الأصيل بثوب ذهبيّ حزين في قلوب راكبيها، يهيج في قلوب الشعب، وتقفر القصور الصاخبة بالنساء والملق والأبهة والترف. وتجوس يد الإصلاح في المرافق الهامدة الراكدة فتحيي ميتها. وتمتد إلى الفساد في الحكومة تعمل على إبادته. وتنظر إلى هؤلاء الذين امتلأت بطونهم وأينعت وجوههم وبذروا الأموال في أحياء أوربا الصاخبة باللذة الحرام، واللابسين ثياب ثرائهم المنسوجة بأيدٍ مكدودة محروقة خشنة من المعاول والفؤوس. تلك الأيادي التي لا تعرف إلا الخبز الجاف والتافه من الخضر والجريش من الملح والتي تبسط كفيها لتبلغ أفواهها بالماء الآسن الحافل بذلك العلق القاتل الواغل في الدماء.

نظرة الثورة إلى هؤلاء وهؤلاء، فراعها الغنى الواسع والفقر الواسع فأخذت من الأول للثاني بمقدار لا يرهق الأول. ويرفع عن الثاني أثقال أجيال من الذل والإرهاق والجوع والحرمان، وأخذت البغاة المستغلِّين

بالرفق والرحمة، فظّنوا رفقها حمقًا ورحمتها ضعفًا فسدوا في غيهم وبكوا على استغلالهم، ومشوا في الظلام ثعابين شائعات وذئاب مؤامرات، فبطشت بهم في محاكمات عادلة ظاهرة كشفت عن مساوئهم وأبانت فضائحهم.

وظل التعصّب المذهبي يلبس للناس شعار التقي ويخفي تحته دثار المطامع وحب السلطان. فكدَّس السلاح وأعدَّ العدة ووثب وثبة طاش رصاصها وأُخذوا وجُوزوا بما هم أهله. وارتاح الدين والدنيا من شرورهم وسكنت نأمتهم. وعمدت الثورة إلى النيل فاستدّرت خيره بالسدود تقيمها وتحجز بها الماء المنساب إلى الهباء وتحوله إلى الأرض الطيبة المباركة.

وقامت للجيش تعدّه وتسلِّحه بسلاح لا يعرف الفساد مدافعه ولا طائراته ولا مراكبه. وشادت له المصانع واستجلبت الثقيل من الدبابات والعارم من النفاثات يملأ صفيرها جو السماء، وهيأت من الشباب مردة تهبط من السموات من غير أن يلحقها شهاب ثاقب. فهي شهاب ثاقب يجرف العدَّو ويصد المغير ويعيد أيام صلاح الدين وقطز وقلاوون والغوري، كما هيأت منه حرسًا وطنيًا وشغلته عن فراغه وعبثه بالجد والحزم وحب الوطن. وكشفت عن باطن الأرض، فأخرجت الحديد والبترول والفوسفات عدّة الأمم وعماد الثروة، وعدة المستقبل، ومشت للعلم فرفعت له المنائر في مدارس ابتدائية وثانوية وجعلته كالماء والهواء كما يقول طه حسين.

ومشى رمزها: جمال عبد الناصر إلى آسيا يرفع اسم مصر ويقدّمه ويذيعه في تلك الأمم العريقة في القدم، ويبلغ الشاب الطوال المعكوف الأنف من الحنكة والكياسة ما لم يبلغه هؤلاء المحترفون ذو الأسنان والتجارب والمطامع. وتنسى الثورة نفسها وتؤثر السودان بالحرية قبل أن تقدمها إلى مصر ويصلب عودها فلا تماكس ولا تساوم في حق مصر؛ فتسترد القناة ذلك الشريان المائي الجامع بين البحرين العظيمين، ويجلو الأجنبي عنها بعد أن عجزت عن طرده فحول الرجال.

وتصبح القاهرة في أول مرة في تاريخها الطويل يعبر طرقاتها حكام من أبنائها وأبناء أخواتها في البحري والقبلي، ويرفرف على دورها أعلام تحريرها، وتصبح عاصمة جمهورية مصرية حقًا، بعد أن كانت عاصمة خلافة للأجنبي المنحدر من القيروان وعاصمة سلطة للأجانب من الأكراد والمماليك المحمولين من ديار الأناضول وجبال القوقاز، وولاية تابعة لبلد أجنبيّ، وعاصمة لسلطة حكام ينحدرون من آباء غاصبين شذّاذ مرتزقة ثم عاصمة لمملكة حكمها اثنان من تلك الأسرة الفاجرة الظالمة. وسلبت الثورة هؤلاء المستغلين من بيت محمد علي ثرواتهم وردتها للشعب، وكفت مصر الجحود والإهانة والانتفاء من الانتساب إليها، وحمل كد أبناءها إلى المصارف الأجنبية، ودور القمار العالمية وميادين السباق يبعثر وينفق هباءً منثورًا.

أخلاقها وعاداتها ومعايشها

ما برحت القاهرة منذ عهدها الأول تطبع كل من يتخذها سكنًا ومقامًا بطابعها الخاص وبذوقها الخاص وأخلاقها الخاصّة، فما نزلها شامي أو عراقي أو مراكشي أو غير ذلك من الغرباء إلا تركته قاهريًا قُحًا بعد قليل أو كثير من نزوله فيها. وقد اعتز بها أهلها فسموها أُمَّ الدنيا لظرفها وكياستها، ويحن إليها الغريب الذي يزورها أول مرة فيقول: إذا شرب المرء ماء النيل مرة فلا بد أن يشربه ثانية. ويقول فيها شوقي:

وطني لو شغلت بالخلد عنه — نازعتني إليه في الخلد نفسي
يصبح الفكر والمَسلّة ناديه — وبالّسرحة الزكّية يمسي

ولا تزال تهفو إليها قلوب أهل الريف، وتعشقها، وتصف الظريف النظيف الثوب بأنه ابن مصر، ومصر هنا: القاهرة. ومن حب المصريين في سكناها تراهم يهاجرون أفواجًا إليها حتى اكتظت وامتلأت، وهي منية قلوب موظفي الدولة فما عين موظف في وظيفة إلاّ واشرأبت نفسه تتطلع إليها، وما بعد عنها إلاّ وأجهد نفسه سعيًا للرجوع إليها، وقد هام بها كل سكان الأقاليم. فزيارتها روح وريحان والنزول فيها بهجة ونزهة.

عرفت فتاة ألمانية جاءت دار الكتب المصرية للمشاهدة، فلما أفضنا في الحديث – وكانت حضرت للسياحة – لمست منها إعجابًا وحبًا لهذه المدينة القديمة حتى أنها كادت تبكي لأنها ستبرحها غدًا إلى بلادها.

ومن أخلاق أهلها: الظرف وحب النادرة، فما حدثت حادثة تمس الأخلاق وتنطق بالغريب المستهجن إلا وصاغ لها أهل القاهرة نادرة لطيفة في قصة لطيفة، وقد تعصب أهلها القدامى فقالوا: "الذوق ما فتش باب النصر". وباب النصر: أحد أبواب مدينة جوهر.

ومن أخلاقهم: التأدب مع الناس ومخاطبتهم في رقة ومجاملة. ومن أخلاقهم: البشاشة في اللقاء وإفشاء السلام والترحيب بالزوار والإسراع بالمعونة الملهوف واللين في المساومة.

ومن أخلاق أولاد البلد فيها: الكرم وإكبار الشيوخ وتوقيرهم والسماع لمن فوقهم ثقافة ودرسًا والقناعة بالموجود، واحتمال الأذى والطاعة لحكامهم، وكف بعضهم بعضًا عند احتدام الجدل أو التشابك بالأيدي، والإسراف في الشهوات، وإيثار أنفسهم على أولادهم وزوجاتهم وذويهم.

ومن أخلاق الطبقة الوسطى: حب الفضول والتظاهر بالغنى وادعاء العلم وكرائم الأحساب، والتمسح بمعرفة العظاء والأغنياء، ورعاية أولادهم وتعليمهم، والسعي إلى الكمال. بخطوات تتعثر أحيانًا وتهتدي أحيانًا أخرى، وإيثار أسرهم على أنفسهم، وحب السماع والسهر في المقاهي، والغزل في التعرض للنساء باللفظ والإشارة.

ومن أخلاق الطبقة العليا: التشبه بالأجنبي والميل إلى الغطرسة والكبرياء، وازدراء الفقراء، والانتفاء من الانتساب إلى الفلاحين، والجنوح

إلى التعلق بالأصل الشركسي والتركي، ومسك أيديهم عن العطاء إلا متورطين أو منغمسين في فتنة: قوامها الجمال والإغراء. ومن أخلاقهم أيضًا: قطع الوشائج بين الطبقتين المتقدمتين، فليس بينهم تزاور ولا مجالسة ولا تعارف إلا ما تمليه المصلحة وتوجبه المعايشة.

ومن عادات أهل البلد: التزاوج، والإنفاق على الكيوف، وغشيان المقاهي صباح مساء، وبذل الأموال على الأصحاب في الشراب البريء وغير البريء بين المقاهي والحانات وبؤر الدخان الأزرق. ومن عاداتهم: الإجادة في ما يقومون به من حرف مع كسل وتراخ وحب للفراغ.

ومن عادات نسائهم: السعي إلى السمنة، وارتداء الصارخ من الألوان في أزيائهن، والصخب في الخصومة، والمبالغة في المكايدة، وادعاء الأمراض عند طلب الحاجة.. يجعلن هذا من الدلال على بعولتهن، ومن عاداتهن: التثني في مشيهن، ومضغ اللبان، ونتف الوجوه والصدور والسيقان بالحلواء المعقودة وتزجيج الحواجب، وربما بالغن فارتدين الزي الغربي فكشفن عن ظهورهن وصدورهن. ومن عاداتهن: القلق في الحياة الزوجية والشجار مع بعولتهن. ومن عادات نساء الطبقة الوسطى: طاعة بعولتهن، والقيام على أطفالهن بالرعاية والحب، وإجادة الطهو والغسل والخياطة والاحتشام في الملبس والزينة، والاستقرار في الحياة الزوجية، وتحدث بعضهن على بعض في غيبة وحسد. والاقتصاد في النفقة، والحفاظ والوفاء للأزواج، وإن انحرفوا عن الوفاء لهن.

ومن عادات نساء الطبقة العليا: التبرج وغشيان ميادين السباق والنوادي الرياضية، وزحم المتاجر التي تقدّم الأزياء الغربية، وشهود حفلات البرّ للتظاهر ولعرض الأزياء ولاصطياد الأزواج ومن عاداتهن: الكبرياء والسعي إلى النحافة والتحدث باللغات الأجنبية والرقص وكثرة الملل من بعولتهن وتغييرهم في سهولة ويسر. ومن عاداتهن: الإسراف والسفر إلى أوروبا والتشبه بنساء هوليوود وترأس حفلات البر تقليدًا وتظاهرًا، ومشاركة الرجال في الشراب والرياضة.

ومن هوايات أبناء البلد: تزجيل الحمام للطيران، وترويض الكباش للنطاح، وإعداد الديوك للهراش، وكان كثير من الطبقة العليا في العهد القديم يشاركونهم في هذه الهوايات. مثل أولاد علي باشا شريف ومحرم باشا شاهين وحافظ رمضان رئيس الحزب الوطني وفايق خيري وكثير غيرهم.

ومن هواياتهم إلى عهد غير بعيد: اتخاذ الحمير الفارهة، مطايا يلبسونها اللجم الفضية والبرادع الحريرية ويتركونها مشدودة اللجم أمام المقاهي يسيل لعابها ويبدو ضيقها، وربما اتخذوها للسباق في الأماكن الخالية في العباسية وناحية فم الخليج.

ومن هوايات الميسورين منهم: اتخاذ الأمهار وترويضها بأثقال الحديد يضعونها في أرجلها لتتخذ مشية يرضونها ويعجبون بها، ويسمون هذا الصنف من الخيل: بالرّهوان.

ومن هوايات الميسورين أيضًا من هذه الطبقة: اتخاذ عربات الدّوكار للنزهة (وهي عربة صغيرة يجرها جواد واحد) في أحجام وأشكال مختلفة وربما بالغوا في زينتها فزّينوها بالورد نهارًا وبالمصابيح ليلًا.

ومن هواياتهم: لبس الحرير اللامع في أوشحة يطوقون بها أعناقهم أو عمائم لاصقة برءوسهم، وحبّ التختم بخواتم من الفيروز الأزرق والعقيق الأحمر.

ومن هواياتهم: تدخين الجوزة المعبأة بالتمباك وبغير التمباك أحيانًا وشرب الشاي بكثرة والقهوة من غير سكر. وغشيان الحانات المتواضعة لشرب الكونياك الرخيص الثمن والزبيب والروم والنبيذ.

ومن هوايات الطبقة الوسطى: التحدث في السياسة وإطلاق الشائعات، والاختلاف إلى المقاهي في الأحياء النظيفة المكتظة بالمتاجر للغزل ومشاهدة النساء الراحات الغاديات والتنزه، على شاطئ النيل في الجزيرة والجيزة والسير على كورنيش النيل والتظاهر بالزيّ الأنيق والحذاء اللامع. وكانت هذه الطبقة في العصور الغابرة تغشى بركة الأزبكية وبركة الفيل وخليج أمير المؤمنين والخليج الناصري للنزهة والغزل والترويح عن النفس. والاختلاف إلى ساحة باب اللوق لمشاهدة خيال الظل والحواة.

ومن هوايات الطبقة العليا: غشيان نوادي السباق وإعداد الخيل وتضميرها للمراهنة عليها. وحبّ صيد البط على برك في الريف معدّة لذلك، وغشيان النوادي للمقامرة، والتحدث في الفراغ والغزل والسياسة،

واقتناء المركبات الفاخرة الأمريكية والإنجليزية، والتسابق إلى السفر إلى المصايف العالمية. وكان من هوايات هذه الطبقة في العهد القديم: حيازة الجياد الضامرة للفروسية والسباق وحب الصيد بالفهود والصقورة والبزاة المدّربة. ولعب كرة الصولجان (البولو) في ميدان القلعة، واقتناء الجواري الحسان والمماليك المُرد وحيازة الجواهر الثمينة.

ومن هوايات الطبقة العليا في أواخر القرن التاسع عشر: اقتناء المركبات اللامعة والجياد المجرية والروسية. وتدريبها وإعداد السوّاس للجري أمامها وهي تجرّ العربات، وإلباس سواقيها أزياء مزركشة من منسوج القصب.

ومن هوايات المماليك في عصورهم الأولى والمتأخرة: ركوب الجياد في سروج ولجم علائفها من الذهب والفضة وخروجهم للنزهة في بركة الأزبكية وشواطئ النيل في الجيزة وبولاق.

ومن لباس الطبقة العليا من السادة في العصور الأولى: الأثواب الفضاضة الملونة من جبات وأردية وعمائم مزينة باللآلئ ومنسوجة من الجوخ الغالي الثمن والحرير السوري ويتكون الزيّ من قطعتين: سراويل واسع يضيق في أسفله. فهو أشبه بلباس أبناء البلد من أهل الإسكندرية اليوم. وفوقه رداء ضيق بعض الشيء. أما لباس العامة فهو سراويل من نسج الأنوال المحلية في تنيس. ودمياط وغيرها من القرى أو المدن التي عرفت بأنوالها في تلك العصور. وبدأ الرجال في لبس الإسطمبولين من

أواخر القرن التاسع عشر، وهي معاطف سوداء تحتها سراويل ضيقة، ويكاد لباس السيدات يشبه لباس الرجال إلا في صدار لطيف لا يكاد يتجاوز الكتفين إلا قليلًا. وفوق رءوسهن عمائم مائلات صغيرات تنسدل منها عذبة تطول حتى تلحق الفخذ تسمى العزيزية، وفي القرن التاسع عشر: أخذت النساء عن الفرنسيات زيهن، وكانت ثيابًا فضفاضة الذيول ضيقة الأكمام، والصدور والخصور، وكانت تنم عن الاحتشام التام.

ولباس الطبقة العليا من الرجال في العصر الحديث: بذلات أنيقة غربية يبالغ خياطوها في تدويرها وتحويرها وتضييقها وهي تتبع الذوق الإنجليزي تارة والذوق الفرنسي تارة أخرى، وقد يجنح بعضها إلى الذوق الأمريكاني خصوصًا في أردية الشتاء (المعاطف) وتحتها قمص حرير يميل غالبها إلى الأبيض أو اللون السمني، وأحذيتهم من النوع الإنجليزي الغالي الثمن المتين الصنع.

ولباس الطبقة الوسطي في العصر الحديث: يشبه ذوق الطبقة العليا، ويختلف في أثمان الأقمشة للقدرة المادية، والفارق بين الطبقتين في هذه القدرة، وقد يلبس جماعة من هذه الطبقة القفاطين الحريرية. (الشاهي) وفوقها البلاطي «المعاطف» من الجوخ والصوف، وهم غالبًا من تجار الحوانيت، ولا تزال طوائف علماء الدين يرتدون الجبات والقفاطين والعمائم.

ويلبس أولاد البلد في العصر الحديث: جلابيب من الأصواف شتاء. ومن الحرير الصناعي صيفًا، ويلبس الفقراء منهم: جلابيب الكستور شتاء والبفتة أو التيل صيفًا، وفوق رءوسهم لاسات لاصقة تحزم جباههم.

وتلبس نساء الطبقات العليا: الحرائر الغالية المستجلبة من ليون وغير ليون ويتبعن في تفصيلها الذوق الباريسي المستحدث في كل عام عند جاك فاث وكريستيان ديور وغيرها من بيوت الأزياء الباريسية، وتقوم هذه البيوت الآنفة الذكر بإعدادها لهن.

وتلبس نساء الطبقة الوسطى: الأنسجة المتوسطة الأثمان وينهجن منهج الطبقة الأولى في التفصيل ولكن عن طريق الكتلوجات المصورة.

ويلبس نساء أولاد البلد: خليطًا عجيبًا من الأذواق، منه القديم والمستحدث، كل على حسب قدرة الأزواج في الكسب وحبهم لأزواجهم.

أطعمة أهل القاهرة

كان الطعام في العصور الأولى من حياة القاهرة بسيطًا في تكوينه، كان لا يتجاوز اللحوم والخضر والخبز، في طهو ساذج بسيط، تكاد ألوانه لا تتجاوز العشرة ألوان، وهي الملوخيا والباميا والخبيزة واللوبيا والكرنب والقنبيط والثريد والعصيدة، والمفروكة.

ولكن ما لبثت أن تعددت الألوان المستجلبة مع المغاربة والأكراد والأتراك والجراكسة، فعرفت القاهرة طعام الشركسية وقوامه الأرز

والدجاج، والكسكسي والتربوريك، وقوامه العجين واللبن والسمن. واليانج ضولمة (الضولمة الكاذبة) وهو حشو أرواق العنب وأوراق الخس وخضر الفلفل بالأرز من غير اللحم، وداود باشا. وهو طعام من اللحم المكور يجعل في المرق الأحمر والبصل، والأرز الخديوي ويعمل من نسائر الديوك الرومي، وهو قريب من الشركسية. وطاس كباب وكباب الحلة. والكفتة المغربية. والأطعمة الغربية مثل الفليتو والكستليتة بانيه، والسمك بالمايونيز، والبفتيك، وغير ذلك كثيرًا جدًا قد يتجاوز المائتي لون من ألوان الطعام الدخيلة إلى القاهرة مع المستعمرين. أو من شذاذ الآفاق، والغالب على أطعمتها اليوم الطهو التركي والفرنسي.

وطعام الفقراء منها بسيط تافه، والغالب فيه الفول المدمس الذي يشركهم في أكله الطبقات المتوسطة والعليا، وقد تأكله الطبقة المتوسطة كل صباح، وتلم به الطبقة العليا إلمامًا يسيرًا كلما أجمت طعامها الدسم الغالي الثمن، وقد تأكله الطبقة الفقيرة في وجباتها الثلاث. وتبلغ الطعمية مبالغ الفول في أهميته عند هذه الطبقة أيضًا، وتجري مجرى الفول عند الطبقتين الأخريين.

والطهو عند الطبقة الفقيرة: بسيط ساذج لم يتغير عن طهو العهد القديم، عندما نشأت القاهرة ولكن يختلف عن ذلك عند الطبقة الوسطى، فهو أحسن إتقانًا وأكثر ألوانًا، وتغلب عليه الصناعة التركية.

والطبقة العليا: يجنح طهاتها للذوق الفرنسي، فأكثر لحومها تنضج نصف إنضاج عند شوائها، ويحف بها الخضر من الخس والبطاطس والبنجر والقرنبيط، وأكل هؤلاء قليل، وقد لا يأكلون الخبز إلا في القليل النادر، وذلك ليتجنبوا السمنة في أبدانهم، وفي هذه الطبقة جماعات يحبون الطعام ويقترحون على طهاتهم ألوانًا تركية دسمة، وأنواعًا من الحلواء تقطر حلاوة ودسومة، وهم عادة من أولاد الإقطاعيين الفلاحين الأغنياء.

وتتناول الطبقة الفقيرة كل طعامها باليد، وكذلك الطبقة الوسطى، إلا بعضًا منها يؤثرون النظافة فيتناولون طعامهم بالأشواك والملاعق والسكاكين. أما الطبقة العليا فكلها تتناول طعامها بالأشواك والملاعق والسكاكين، وتفتن في ذلك، فللسمك أشواك وسكاكين، وللحوم أشواك وسكاكين، وللدجاج والحمام أشواك وسكاكين وللفاكهة أشواك وسكاكين، وقد يندّ قليل جدًا من هذه الطبقة عن استعمال هذه الأدوات ويأكلون بأيديهم، وهم جماعة الإقطاعيين الأغنياء.

وكل طهاة الطبقتين الفقيرة والوسطى: نساؤهم أما الطبقة العليا. فلهم طهاة من الرجال قد يبلغ أجر الواحد منهم من المشاهير ثلاثين جنيهًا، وكان طهاة هذه الطبقة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر: جوار سودًا، وقبل ذلك كان طهاتهم من غلمان الشراكسة والأتراك.

وأول من باع الجمهور اللحم مشويًا في القاهرة في مطعم عام: حاتي القربية، وكان في أول أمره جزارًا واسمه الحاج حسن، وابنه علي حسن

يفتتح الآن مكانًا للشواء بجوار سينما مترويول خلف شيكوريل. ثم تتابعت مطاعم الحاتي في أنحاء القاهرة. وكانت في أول أمرها لا تقدم إلا الشواء. وصلطة الطحينة وسلطة الخضر، ثم تجاوزت ذلك إلى تقديم مختلف الطعام الشرقي لروادها.

ومن أشهر مطاعم اللحوم في القاهرة: محل الحاج علي الدهان (الشهير بالعقر) في السكة الحديدة وهو يقدم لحوم الجداء مطهوة في تنانير عميقة تسد أفواهها بالطين ويحمى عليها بالفحم حتى تنضج.

ومن أشهر أماكن طعام الفول: محل خالتي شفا في أوائل القرن العشرين، وكانت تبيع لطلبة مدرسة الحربية في العباسية. ومحل مهيأ بجوار الأزهر وكل زبائنه من طلبة الأزهر، ومحل إيزافتش في ميدان التحرير ومحل التابعي في ميدان التوفيقية.

ومن أشهر أمكنة طعام الطعمية: الحلوجي في السكة الجديدة، ويبيع لونًا من الطعمية حشوه البيض والفول، وطعمجي الصنادقية وهو قريب من الأول. وكان هناك رجل لبيع الطعمية على شريطة أن تقف أمامه فإذا وجد شعرًا في وجهك باع لك، وإلا أبى البيع. ومن أشهر من عرف من باعة الطعام في أواخر القرن التاسع عشر: أم بكير. وكانت امرأة ضخمة مخشية البأس لها سطوة الملوك تبيع المحشي على ناصية طريق عشش الشركس في بولاق قريبًا من كوبري أبي العلاء. وكان زبائنها من اللصوص والقتلة وعرّام الرجال. ولكنهم كانوا جميعًا يرهبونها، فلا يستطيع أحدهم

أن يأكل ويهرب أو يأكل بالنسيئة. فسطوتها قانعة مانعة. ومن أشهر باعة اللبن: المالكي بجوار ضريح الحسين بن علي، وهو يقدم أنواعًا من اللبن بين حليب ولبن بأرز مع خبز مصنوع بطريقة عجيبة توائم اللبن وتلائمه. وكان في القاهرة في أوائل القرن العشرين جمل يحمل صندوقًا به كعك وصاحبه يصيح: تلاته بالمليم بسمن البقرة.

ومن أشهر الأمكنة الجامعة في تقديم الأطعمة الشرقية اللذيذة: الحي الحسيني فهناك الفطائر والكوارع، ولحوم الشواء، والطواجن في الفرن. وعلى الجملة فالحي الحسيني أشهر مكانًا في مصر لتقديم الأطعمة الشرقية، وأشهر المطاعم في أوائل القرن العشرين التي كانت تقدم الأطعمة الغربية: مطعم سانتي في حديقة الأزبكية، ومطعم الكورسال في شارع مُحَّمد فريد، ومطعم دلباني في قصر النيل وصاحبهما واحد. وصولت، وفنش، وإركل، وفلاش، وباريزيانا، وبافاريا.

مواصلاتها

كانت مواصلات القاهرة عند نشأتها: عدتها الخيل والحمير والبغال والجمال، شأنها في ذلك شأن سائر المدن الإسلامية، فلم تعرف بغداد ولا دمشق ولا قرطبة في عصورها البعيدة، تلك العربات التي كان يعرفها قدماء المصريين ورومان روما، والتي كان يجرها حصان واحد، وتتخذ للحروب وللصيد.

ومكثت كذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر، فعند ذلك عرفت عربات الحنطور التي شاع صنعها في فرنسا في القرن السابع عشر، فاتخذها الولاة من بيت مُحَمَّد علي لتنقلهم وتابعهم الذوات من أتباعهم من الجركس والأتراك، وقليل جدًا من أغنياء المصريين.

وكانت في أول أمرها ووسطه فخمة لامعة تجرها جهاد مطهمة تُجلب عادة من بلاد المجر والروس، ويقوم على سوقها غلمان من الروم أو الترك حسان الوجوه يتراءون في أزياء حمراء تشبه أزياء الفرنسيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وأمامهم عداؤون في أيديهم عصيّ طويلة صائحين في المارة: اوعى اوعى.

وكان السادة الأغنياء يتخذون لنسائهم عربات مقفلة تقوم على جوانبها نوافذ بلورية الزجاج وتسمى (بالكومبيل) وذلك للحرص على النساء من التعرض لفضول عيون الشعب.

وظلت المواصلات بدائية لا تعرف غير الدواب إلى أن صنعت العربات الكارو في أواخر القرن التاسع عشر فاتخذها الشعب مطية له ولأثقاله، فكان الناس يتكدسون عليها جماعات ومعهم متاعهم للوصول إلى ما يبتغون من أغراض.. وكانت تساندها الحمير يسوقها المكارون مأجورة. وأكثر أوقات امتطائها هو الليل، حين ينصرف السمار من الحانات والمقاهي ودور اللهو في الأزبكية. وكان أشهر مواقفها: موقف الخازندار حيث يوجد الآن محل سمعان صيدناوي.

ثم رأى سوارس وهو رجل أجنبي: أن يستفيد اقتصاديًا من هذا المرفق فأنشأ عربات من الخشب تسع العشرة والعشرين من الركاب ويجرها بغلان، وجعل أول خط له بين العتبة الخضراء وبولاق حيث مدرسة الصنايع القديمة، ثم اتخذ خطًا ثانيًا بين العتبة والسيدة زينب، وتابعت له بعد ذلك عدة خطوط في مناحي القاهرة.

وجاءت بعد ذلك شركة بلجيكية، ونالت امتيازًا لسير مركبات كهربائية، فأنشأت أول خط للترام سنة ١٨٩٥. وكان بين العتبة الخضراء والقلعة، ثم توالت خطوطها حتى شملت أغلب مناطق القاهرة، وظلت سوارس تعمل، ولكن في المناطق التي خلت من عربات الترام، مثل: من العتبة إلى الدراسة، ومن الدراسة إلى الإمام الشافعي حتى وقفت عن السير نهائيًا في السنين الأخيرة حيث حل مكانها الأوتوبيس.

وانحدر عزّ الحنطور، وخرجت للجمهور يمتهنها في مواصلاته، كما انحدر عزّها أيضًا بظهور السيارة في أوائل القرن العشرين، وأول من ركب السيارة في القاهرة: الدكتور محمد عبد الوهاب، وكانت ماركة (رينو) ثم جاء بعده السادة الأغنياء فهجروا عربات الخيل واتخذوها مركبًا.

وجاءت الحرب العظمى عام ١٩١٤ فرأى بعض المنتفعين أن يجعل من السيارة تكسًا مأجورًا للكسب من جنود الحلفاء المتدفقة على القاهرة. ثم استحدث بعد ذلك الأوتوبيس، وكان ملكًا للأفراد، فكل فرد كان يستطيع أن يستغل عربة لحسابه الخاص فكانت خليطًا من الأحجام

والألوان والعلامات. إلى أن جاءت الشركة الإنجليزية (ثورنكروفت) فأخذت امتياز الأوتوبيس على كل خطوط القاهرة، وأرهقت الجمهور في سني الحرب (حرب ١٩٣٩) واشتد بلاؤها فرأت الحكومة أن تشرك معها بعض شركات أهلية، فلم يغن ذلك شيئًا لازدحام القاهرة بسكانها وبالوافدين عليها من سائر القطر، فتقدم ذلك المهاجر المصري أبو رجيلة وورث تلك الشركة الإنجليزية، وسير في خطوطها عربات أنيقة حمراء، وأخذ يزحم سائر الشركات الأهلية حتى قضى على بعضها وأخذ يتطلع للقضاء على الأخريات عام ١٩٥٨.

الشحاذون

لم تعرف مدينة من مدن الشرق العربي من الشحاذين مثل ما عرفت القاهرة، فهي لا تزال يفد عليها من سائر الأقطار الإسلامية وفود عدة من أبناء السبيل المعتزمين الحج والوافدين إليها في جميع عصورها، ولولا هذه الحواجز المستحدثة في الجنسية والجوازات وتحديد الإقامة والتأشيرات بالدخول لضاقت هؤلاء الغرباء الفقراء؛ فقد عرف عنها في القديم أنها بلد مضياف كثير البر كثير الخير، فجاءه الغرباء كما قدمت فمنهم من عمل واستغنى ومنهم من خاب وسأل الناس إحسانًا.

والإسلام دين يحض على الصدقة، فاستغل هؤلاء المتعطلون الكسالى سماحة هذا الدين في قلوب معتنقيه فسألوا فأعطوا، حتى أصبح بعضهم يحصل من المال أكثر مما يحصله العامل الجدّ. وأصبح هذا العمل الشائن

فنًا عند هؤلاء، فمنهم من يتعامى، ومنهم من يتعارج، ومنهم من يتأرجح في مشيته ويهتز كأنه مشلول. ومنهم من يتخارص ويتصامم، ومنهم من يستأجر الأطفال الصغار ويعرضهم وهم في أسمالهم الممزقة، ويدعي أنهم أبناؤه. وأنه عاجز عن إطعامهم. ومنهم يستغل عاهته فيبرز ذراعه إذا كانت مقطوعة أو ساقه المبتورة، أو ورم قدميه المصابتين بداء الفيل. ومنهم من يقرأ القرآن على نواصي الطرق مادًا كفه للعطاء مدعيًا العمى، ومنهم من يسارك في استحياء ليوهمك أنه من أسرة كريمة أخنى عليه الدهر.

ومنهم من يتزيا بزي العمال ليلقي في روعك أنه عامل عاطل مفصول عن عمله. ومنهم من يرسل لحيته حتى تضرب وسط صدره، وقد لاث عمامة حمراء وأرسل من عنقه مسبحة طويلة لتظنه أنه من رجال الصلاح. ومنهم من يحمل مبخرة ويطوحها في يده ليسطع دخالتها المثار العطر في وجهك وهو يتمتم بالصلوات. ومنهم من تحتجب بقناع أبيض وهي في رداء أبيض وقد وقفت تصيح: "يا أم الكرام يا سيدة" مدعية أنها من شيعة السيدة زينب بنت الإمام علي.

ومنهم من يدعي أنه من شيعة البيومي، ومنهم من يدعي أنه من شيعة الرفاعي، ويحمل هؤلاء عادة الثعابين غير السامة يسلطونها على وجوههم تلعقها موهمين الناس أنهم محصنون من سمومها لاتصالهم الروحي بالرفاعي الذي لا أدري ما صلته بالثعابين والسيطرة عليها. ومنهم من يقود قردًا مدربًا يرقصه، ومنهم من يصحب قردًا وحمارًا وجديًا مدربين

على ألعاب تضحك لها الصبية.. ومنهم من يقود دبًا ضخمًا وقد ثمل عينيه ليتقي ضراوته وبطشه، وقد حمل رقًا يقرعه ليرقص عليه الدب.

ومنهم من أتقن ضروبًا من الشعوذة وشيئًا من المهارة، فيحمل على أنفه وأسنانه المقاعد والموائد، ومنهم من يعقد الحلقات في الأسواق، ويشعوذ بخفة يده فيذهل الجمهور وأبرز مكانًا لهؤلاء كان في سوق العصر عد القلعة، ومنهم من يدعي الجنون فيحمل سيفًا خشبيًا ويدعي أنه مجاهد في سبيل الإسلام وسبيل الوطن، وقد كان من هؤلاء رجل يحمل سيفه الخشبي ويصيح في الصبيان الذين تستهويهم غرابته. ويقول: الله حي عباس جي (عباس الثاني وكان مخلوعًا يومئذ) ثم يكر على هؤلاء الصبية بسيفه فيتماوتون أمامه؛ فتضحك الناس ويتصدقون عليه، ومنهم من كان يقف للمارة وهو ينبئ بالغيب، فيصيح رافعًا عكازته مشيرًا إلى الجهات الأربع وهو يقول: "تفرج من هنا. والا من هنا. والا من هنا والا من هنا".

ومنهم من ارتفعت منزلته عند نفسه، وعند بعض السذج، فأصبح راوية أخبار، ومبشرًا بالوزارات.. يطرق المقاهي والنوادي الراقية هامسًا للمنتظرين والمؤملين في الحكم بالبشرى الكبرى. ومنهم من يدعي الأدب فينظم الشعر المكسور والزجل المبتور ويقدمه في رقاع قذرة ليستدر الإعجاب والنقود، ومنهم من يرفع عقيرته بالغناء في مجالس الشراب مقلدًا عبده الحامولي ومُحَمَّد عثمان ويوسف المنيلاوي ومُحَمَّد عبد الوهاب، ومنهم من يلقي منولوجات كشكش بك، وعبد الله شداد، وحسن فايق، وحسين

المليجي، ومنهم من يحمل كمنجا، ويطرق المقاهي والمطاعم، ويوقع عليها أنغامًا عربية وغربية.

ومنهم من يحمل ربابة، ويطرق بها المقاهي البلدية يشيد عليها ببطولة أبي زيد الهلالي والزناتي خليفة والزير سالم وعنترة بن شداد، ومنهم من كان يلم بألف ليلة وليلة والألدراتو القديم والجديد وقهوة إلياس في الأزبكية، يصفق للمغنين والمغنيات ثم ينثر حبات من الفول واللب على الموائد، ويتقاضى أثمانها مضاعفة، ويسمى هؤلاء بالمطيبين وأشهرهم: الشيخ بحر، ومنهم من يحمل صندوقًا موسيقيًا بيده، وربما صحب معه آخر يرقص ويقرع بالدف على نغم الصندوق الموسيقي، ومنهم جماعة كعكم الذين يلبسون طرابيش بأزرار طويلة يتصافقون على أقفيتهم وهو ينشدون أزجالًا منتقاة:

وقد احتفل جماعة من المماليك بهؤلاء الشحاذين فأقاموا لهم تكايا يأكلون فيها ويشربون وينامون بغير أجر مدفوع إلا صلة البلد والجنس، بينهم وبين هؤلاء الشحاذين، ومن أشهر الشحاذين في القاهرة: ذلك الأسود الأنيق الذي كنت تراه دائمًا في متصف محطة مصر يستقبل الغادين والرائحين، ويستجديهم. وذلك المطرب الممثل الذي له فراسة الكواسر في الانقضاض على الضحايا، وذلك المعمم المبشر بالوزارة والحكم، والعالم بخفايا السياسة العليا، وذلك الكفيف البصر النافذ البصيرة الذي كان يقف دائمًا في شارع الخليج المصري على ناصية شارع الأزهر معتمدًا على

عصاه، وهو يصيح في عربات الترام قائلًا: إطلع يا نمرة ٥ إطلع يا ٢٣ إطلع يا نمرة ٧ ولم أره أنه أخطأ مرة في نمر هذه العربات قط.

ونوادي هؤلاء الشحاذين في الغالب الأعم: أمام أضرحة الأولياء، وأشهر هذه النوادي: الباب الأخضر في الحي الحسيني، وبين ضريحي العتريس والسيدة زينب. وسائر هذه النوادي في الطرقات وحول سينما ديانا ونفق شبرا. وفي أوائل القرن العشرين: كان شحاذ مائل العنق يلبس طرطورًا مربوطًا بطبل وهو يقرع على هذا الطبل. ويصيح: "يا بنت پاريز يا رقاصة. يا بنت پاريز".

الظرفاء

لا شك أن الخلفاء من الفاطميين كان لهم ندماء من الظرفاء يسامرونهم ويضاحكونهم كما كان لخلفاء بني أمية مثل الوليد بن يزيد الذي كان يصطفي أشعب الطماع. كما كان الخلفاء من بني العباس كذلك، فقد كان للهادي نديم ظريف هو عيسى بن دأب. وكان للرشيد: أبو مريم الحنفي، وللأمين: حسين الخليع. ولا مراء في أن الملوك في كل العهود لا تخلو حواشيهم من هذا الصنف من الناس.

ولكن الكتب التي بين يدي لم تفصح عن وجود أمثال هؤلاء في الدولة الفاطمية، ولعل ذلك مرجعه إلى تظاهر خلفاء هذه الدولة بالتزمت الذي كانت توجبه السياسة الفاطمية لإيهام الناس أنهم من أسرة فاطمة

التي لا يجب أن يعرف عنها الناس العبث واللهو، وأنهم ليسوا كبني العباس منافسيهم الذين اشتهروا بحب السماء والمرح ومجالسة الظرفاء.

ولم نعلم ذلك أيضًا عن الدولة الأيوبية، ولعل ذلك مرجعه لقصر عهدها وانشغالها بالحروب الصليبية. ثم المماليك البحرية، وللمؤرخ العذر في إغفال ظرفائها، فقد كانت تخاطب بلغة غير اللغة العربية. ولكن نظام السترية، وهذه الكلمة التركية الأصل معروفة، والستري: المضحك في اللغة التركية. ولا يكون المضحك إلا ظريفًا. وكان الستري في عهد المماليك البكوات وفي العهد العثماني موظفًا يتقاضى راتبه من أموال الدولة لأنه يضحك الوالي، ويسري الهم عن السنجق. ولا تزال حفدة هؤلاء السترية يعرفون إلى اليوم في القاهرة، ومنهم من اقتنى الضياع عن أجدادهم السترية، فهم في يسر وبحبوحة من العيش.

وفي القرن التاسع عشر اشتهر في القاهرة من الظرفاء: الشيخ على الليثي، وكان أديبا شاعرا يقربه إسماعيل الخديوي ويحبه.

ذكروا أن نوبار باشا رئيس النظار يومئذ كان يصحب جماعة من القناصل إلى مقابلة الخديوي في عابدين فبينما هو يصعد السلم مع القناصل إذا بالشيخ علي يهبط على هذا السلم. وأحنى نوبار رأسه محييًا، فما كان من الشيخ إلا أنه أشار بسبابته له علامة الرفض؛ فخجل نوبار. ولما انصرف القناصل شكا إلى الخديوي سوء أدب الشيخ والسخرية به أمام قناصل الدول. فغضب إسماعيل ودعا بالشيخ ليعنفه؛ فقال: "وماذا

فعلت يا مولاي؟ إن سعادة الباشا أشار برأسه يريد أن يناطحني فأشرت له بأصبعي رافضًا"؛ فضحك الخديوي.

وكان أزهر عهود الظرفاء: عهد عباس الثاني، فقد كان ذلك الرجل يتكلم دائمًا بالعربية ويحب النكتة البلدية. جمع حوله جماعة من الظرفاء من خدمه: هم أبو سعيد الجنايني والشيخ عيد. وأحمد قبودان وكانوا شيوخًا مسنين. حضروا عهد جده إسماعيل، وكان أولهم بستانيًا في حدائق قصور إسماعيل، والثاني من طلاب الأزهر لفظه الأزهر لمجونه واستهتاره في النوادر. والثالث كان صيادًا للسمك لقيه رجل من حاشية عباس الثاني. فلما لمس منه سرعة الخاطر في النكتة والنادرة حدث عنه الخديوي فألحقه بحاشيته.

ومن مشاهير الظرفاء في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين: الدكتور بكير. حدث أن جاءه يومًا مريض فقير: فلما فحصه قال: أنت لازمك عملية. فأجاب الرجل بأنه فقير. فقال يا أخي ما تخافش دي عملية عند الحاتي، وأعطاه ريالًا وصرفه. ومن أشهر هؤلاء الظرفاء: صديقنا الكريم: مُحَمَّد البابلي الذي بلغ الذروة في الظرف، فأصبح حقًا سيد الظرفاء، ومن نوادره: أن أحد المتزمتين في الدين زاره في داره، وكان يجلس على الشراب هو وجماعة من أصدقائه؛ فطلب منه الرجل سجادة للصلاة. وسأله عن القبلة. فقال: والله بيتنا ما فيهش قبلة.

ومن الظرفاء: إبراهيم المويلحي وابنه محمد المويلحي ومحمد توفيق صاحب صحيفة حمارة منيتي. وفؤاد الصاعقة صاحب صحيفة الصاعقة. غير أن ظرفهما كان لاذعًا مقزعًا. والشيخ إبراهيم الدباغ وأحمد جاد. ومن الظرفاء: الشيخ قنديل وكان ينادم شوقي الشاعر وعمر لطفي المحامي وحسن رضا المحامي فكانوا يسمرون حتى الصباح، ثم ينصرفون إلا الشيخ فإنه كان يقول: إنه لا ينام ولا يأكل ولا يكتسي وكان فقيرًا بائسًا.

ومن الظرفاء: حافظ إبراهيم الشاعر، وقد وضعت فيه كتابًا أوردت عن ظرفه ونوادره الشيء الكثير. ومن الظرفاء: الدكتور محجوب ثابت، ومن نوادره أني كنت أجالسه يوما في صولت وكان معنا شوقي والشيخ عبد العزيز البشري. فدخل أحد أبناء موصيري الغني المعروف. وكان يصحب أخته وكانت حسناء رائعة فائقة. ولما بصر بها الدكتور وقف في وسط السكان وأشار إليها وأنشد:

صوني جمالك عنا إننا بشر * من التراب وهذا الحسن روحاني

والبيت لإسماعيل صبري وقد انتحل شوقي. وكان أخوها ظريفًا يعرف الدكتور محجوبًا ويعرف غرائبه فضحك ودعاه للجلوس معهما.

ومن الظرفاء: الظريف الأشهر: إمام العبد بن أحد بوابي القصر العالي، وكان لا يجارى ولا يباري في ظرفه وسرعة بديهته، وقد أوردت عنه الكثير في كتاب «حياة حافظ إبراهيم».

ومن الظرفاء الزجال: خليل نظير الأسود الضخم الشفتين الذي كان لا يفيق من الخمر أبدًا، ومن الظرفاء المشهورين: الشيخ عبد العزيز البشري، وقد ترجمت له أيضًا في كتاب «حياة حافظ إبراهيم».

ومن الظرفاء: الأديب الصحفي جورج طنوس وكان عظيم البطن فإذا شرب رقص في المقاهي والكباريهات.

ومن الظرفاء: نعمان باشا الأعسر، وكان ضخم الجثة سمينًا، غير أنه كان خفيف الظل طيب الروح.

ومن الظرفاء: حفني محمود باشا، وقد ذكرته في كتاب (حياة حافظ إبراهيم).

ومن الظرفاء: وحيد الدين الأيوبي بك، وكان غريبًا في ظرفه، يستعمل المهجور من اللغة. كالألعبان، والثعلبان وطهي يعني الدكتور طه حسين. وكان يهجوه.

ومن الظرفاء: الشيخ حسن الآلاتي، وكان يتخذ مقهى بلديًا بحي السيدة زينب ناديًا له ولأصدقائه. ويطلق عليه: لقب المضحكخانة. وكان يشترط لدخول ناديه وضع رسالة في التنكيت والقفش. حتى إذا حازت عنده قبولًا ضم مقدمها إلى أعضاء النادي.

ومن الظرفاء المعروفين: حسين الترزي، وكان ضئيلًا أعشى البصر، ومن نوادره: أنه كان يجالس صديقه خليل خير الدين، وهو يكاد يكون

أعمى، ولذلك ورث عن أبيه معاشه كله. وذلك جائز في قانون معاش الوالي مُحَمَّد سعيد. فبينما حسين معه إذا بشحاذ يمر بهما يطلب صدقة، فأبصر سوء حال عيني خليل، فدعا له قائلًا: "الله ينورهم لك". فإذا بحسين الترزي يزجره غاضبًا (إمشي الله يخيبك أنت عاوز تقطع عيشه).

وعند ذكر خليل خير الدين، يحسن بنا أن نذكر ظرفاء شارع خيرت فالرجل من ساكنيه. وكان هذا الشارع: أشهر شوارع القاهرة كلها «ينسب إلي خيرت بك والد محمود خيرت المحامي المعروف» في كثرة ظرفائه. وكان مجمعهم هناك في مقهى مشيدي أمام وزارة المالية. وهم: إمام العبد، وأحمد الحلواني، وخليل خير الدين، وسليمان طبيخة، وحسين الترزي، وعبد السميع عرابي بن الزعيم عرابي، وسليمان جبريل، وكان حافظ إبراهيم الشاعر يلم بهذا المقهى أحيانًا.

ومن الظرفاء: المعلم دبشة الجزار ومن نوادره أن السيدة أم كلثوم في أول نشأتها كانت تغني بصحبة أبيها الشيخ إبراهيم رحمه الله، فمرض ليلة، وحدث أنها جلست للغناء في مقهى البوسفور، وكان المعلم دبشة حاضرًا، فافتقده، فسألها عنه؛ فقالت: "والله ده عيان الليلة يا معلم". فقال لها: "طيب ما جبتهش تطل عليه ليه". والسيدة أم كلثوم ظرفها متعالم مشهود، يعرفه أهل القاهرة كلهم.

والسيدة نبوية موسى كانت من الظريفات المشهورات بسرعة البديهة وقوة الحجة، أحضرها يومًا الأستاذ فؤاد سراج الدين وكان وزير الداخلية

وكانت السيدة خصيمته في المذهب السياسي. فنهرها قائلًا: "أنا فلاح أضرب وأنطح". فقالت له: "ما هو باين على راسك".

ومن الظرفاء المعاصرين: مُحَمَّد معاذ، وهو آفة من الآفات، تراه متصوفًا آونة، وعربيدًا آونة أخرى. وحمام الأديب الشاعر، والصديق أحمد رامي شاعر الأغاني، وعبد الله حبيب الكاتب وصالح السوداني الذي يحفظ كل مقال نشر في صحيفة. وبديع خيري صاحب مسرح الريحاني ورمزي نظيم الزجال الشاعر. وحسن فايق الممثل وإسماعيل يسين المعروف، وأحمد الحداد صعيدي ساعة لقلبك، وغيرهم كثير.

ومن ظرفاء أولاد البلاد في أوائل القرن العشرين: السيد قشطه الممثل الهزلي، وأحمد فهيم الفار الممثل الهزلي أيضًا، ومُحَمَّد ناجي المضحك، والحاج علي، وكانوا يجتمعون جميعًا في مقهى بلدي بالدرب الأحمر، يتنادرون بالقافية واشمعنى، فيأتوا بالمفارقات الخيالية الغريبة.

ومن مثقفي الظرفاء: كامل الشناوي الصحفي، وأحمد نجيب المالي المعروف، ونجيب الهلالي رئيس الوزارة الأسبق، وأحمد زيوار باشا رئيس الوزارة أيضًا، وداود بركات الصحفي، وتوفيق فرغلي الصحفي، وتوفيق حبيب الصحافي العجوز، والشيخ سيد المرصفي أستاذ الأدب العربي للدكتور طه حسين في الأزهر، والشيخ محمود زناتي الأديب، ومُحَمَّد محمود جلال الزجال، وعبد الله نديم الثائر الصحفي، وعبد الرحيم محمود، وأحمد

عبد الرحيم المصححان بدار الكتب المصرية، وصالح البهنساوي، والشيخ أحمد العسكري المحرران في الأهرام وغيرهم.

أعيادها

تنتظم أعياد القاهرة قسمين: الأعياد الدينية، والأعياد القومية.

والقسم الأول: له المكانة الأولى في نفوس أهل القاهرة لأنه يمس أقدس عاطفة تساكن قلب الإنسان وهي العقيدة، وأشهر الأعياد الدينية قاطبة: عيد الفطر، وعلة ذلك واضحة؛ فهو نهاية سعيدة لصوم طويل، وحرمان كثير واحتفال بالتقوى دام طيلة ثلاثين يومًا أو تسعة وعشرين إذا قضى الهلال بذلك.

وفي الحق أن الاحتفاء بهذا العيد يبدأ من غرة رمضان، فالنفوس متعلقة به والقلوب تهوي إليه، وليالي رمضان تكاد تكون أعيادًا كلها ففيها يتزاور الناس ويتسامرون ويبتهجون ويسمعون القرآن العظيم وغير القرآن من أغان ونوادر وملح.

وكانت هذه الليالي في عصر القاهرة الأول والوسيط يحتفل بها الناس في دورهم بين سماع القرآن وتلاوة الأحاديث النبوية، وإقامة الأذكار وإنشاد الأشعار الصوفية. ولا يزال لهذا الشهر الأغر عظمته وبره وخطره، فله السطوة الكبرى حتى على الخارجين عليه، والمنفلتين من قيوده سرًا. فليس لواحد من هؤلاء أن يجاهر بمعصية أو بفطر وإلا لحقته لعنة الناس

فاستتر خجلًا معتذرًا، وله اليد الطولى في البر بالفقراء فما جاء فيه فقير أبدًا، فالموائد قديمًا وحديثًا تبسط للفقراء في الدور وعلى أبواب الدور ينتهبها كل من أراد من المحتاجين إليها.

وفي العصر الحديث خرج الناس في القاهرة في ليالي رمضان إلى المقاهي ودور اللهو يسمرون ويلهون، وفي الحق أن رمضان ليله نهار ونهاره ليل. وأحفل أمكنة للسهر في رمضان: الحي الحسيني، حيث يتوافد الأغنياء والفقراء: المسلمون منهم والمسيحيون والفنانون والصائمون، والمفطرون إلى مقاهيه التي تنضح بالقدم وتذكر السمار بالعهود الغابرة من حياة القاهرة.

وفي العشرة الأخيرة من رمضان يتهيأ أهل القاهرة لاستقبال العيد، وذلك بشراء الجديد من الثياب، وصنع الكعك. وصنع الكعك: عادة فاطمية أخذها الفاطميون عن الدولة الإخشيدية فكان القصر الفاطمي يأمر لدار الفطرة بمقادير هائلة من الدقيق والعسل والفستق المقشور والبندق، وكانت دار الفطرة هذه تابعة للقصر الفاطمى وكان يقوم بعمل الكعك مائة عامل.

وكان من مراسم الخلافة الفاطمية في استقبال عيد الفطر أن يمشي الوزير مع كبار رجال الدولة إلى أبواب القصر الكبير في الصباح الباكر لاستقبال الخليفة، والسير في معيته، وكان يركب في هيئة رائعة من الأبهة والجلال، حتى خارج باب النصر حيث تكون قد هيئت مصلى مكشوفة

في صدرها قبة كبيرة بها محراب ومنبر. فيصلي الخليفة صلاة العيد، و بعد الصلاة يعود إلى القصر، ويجلس إلى نافذة تشرف على الإيوان الكبير حيث يكون قد أعد سماط ضخم يحوي كميات هائلة من أنواع الكعك، ثم يفتتح السماط ومعه الوزير وكبار الدولة، ويصيب منه الشيء اليسير ثم يأمر الناس على مراتبهم بالدخول إلى السماط، فينتهبونه أكلًا وأخذًا ثم يتوافدون على الخليفة بالتهنئة بالعيد مع الدعاء والابتهال. ويبدأ الخليفة بعد ذلك في استعراض الجيش ثم في إهداء الهدايا إلى الحاشية والرعية.

وفي عهد المماليك: كانت تقوم هذه المراسم بعد صلاة العيد في الميدان تحت القلعة وفي القصر الأبلق بالقلعة، وفي الحوش السلطاني. وظل هذا النظام قائمًا حتى تبدل في العهد العثماني. فالوفود تذهب إلى القلعة مقدمة تبريكها ودعائها للسلطان العثماني.

وجاءت بعد ذلك الأنظمة الغربية، فدخل البروتوكول الغربي في قصور الولاة والخديويين من آل مُحَمَّد علي. أصبح نظام التهنئة بالعيد: حضور الأعيان في لباسهم الرسمي حيث يستقبلهم الوالي أو الخديوي مستعرضًا محييًا، وتقلص هذا البروتوكول، فأصبح يكتفي بتقييد الأسماء في دفاتر منصوبة بديوان التشريفات في عابدين.

وأكثر الطوائف احتفالًا بالعيد في القاهرة: طائفة الأطفال، فهم في جزل وسرور وثياب جدد فرحين بنقودهم التي حصلوها من آبائهم للمناسبة السعيدة، وينصرف أبناء الشعب منهم إلى الأراجيح يتأرجحون

فيها وإلى ركوب عربات الكارو، وهم يصيحون ويضجون ويهزرون تارة بألفاظ مستقبحة.

ولا يزال أهل القاهرة يحتفلون للعيد بالكعك والسمك المملح المعروف المناسبة منذ القرن الثالث عشر الميلادي. ويستقبل العيد بالمدافع تطلق له في جميع أوقات الصلاة في أيامه الثلاثة.

وكان الناس يتزاورون قديمًا في أيام العيد للتهنئة، وهم في ثياب جدد وقد قلت هذه العادة الآن في القاهرة، وأصبحت تقتصر على البطاقات ترسل في البريد، حتى هذه العادة أيضًا أخذت في الزوال والقلة.

وأراد جماعة من أبناء الذوات أن ينصرفوا بالعيد إلى حفلات عيد الميلاد المسيحي حيث تقام الحفلات والرقص والمجون وشرب الخمر والابتهاج بالمرح، ولكنهم لم يفلحوا للتزمت الماثل في الأعياد الإسلامية.

عيد النحر

كان الخليفة الفاطمي يذهب إلى ذبح الأضحية، ويكون في معيته الوزير وقاضي القضاة والأمراء، ويذبح بيده عددًا من الأغنام توزع لحومها على موظفي الدولة والفقراء وطلبة العلم والأيتام. وكانت تمد الأسمطة وعليها لحوم الأضاحي من الجمال والجاموس والبقر والغنم، فيأكل الجميع، وينتهب منها من يشاء من الفقراء والمحاويج.

وكان السلطان في عهد المماليك يأمر المرقدار بطبخ لحوم الأضاحي وتوزيعها ناضجة مطبوخة مع الفريك والخضر والأرز. وكان السلطان في ذلك اليوم يشق الطريق راكبًا في حرسه. وقد أعدت له الصرر المملوءة بالدنانير ليبدرها على الناس. وفي عهد انحطاط الدولة المملوكية. كان بعض المماليك يغيرون على الفلاحين فيسلبونهم الخراف للتضحية بها. وظلت عادة التضحية في القاهرة قائمة إلى اليوم. وظل بعض الموسرين يذبحون أضحية أو أكثر ويقلعون لحومها جزءًا جزءًا، ويعطون الفقراء من هذه الأجزاء المقطوعة، ومن الندرة أن تجد فقيرًا في القاهرة لا يتذوق اللحم في هذا العيد الأكبر. أما مراسمه الأخرى من الصلاة والتهنئة والاحتفاء فهي تجري مجرى مراسم عيد الفطر.

العيد الهجري

كان للفواطم احتفاء بهذا العيد، وكان من عاداتهم فيه أن يعمل طباخو القصر أنواعًا من لحوم الخراف، واللبن المطبوخ وأنواع الحلوى وتفرق على أصحاب المناصب الرفيعة والعسكريين.

وكان الخليفة الفاطمي يركب في هذا اليوم في هيئة جليلة، ثم يسير في القاهرة، ثم يأمر بالعطاء للحاشية والموظفين، وقد جرى الأيوبيون والمماليك هذا المجرى أيضًا في الاحتفال بهذا اليوم.

وقد تراخى أهل القاهرة بعد ذلك في الاحتفاء بهذا العيد، حتى جاء مصطفى كامل ونادى بالاحتفال به وحمل الحكومة على جعله يومًا رسميًا

تعطل فيه أعمالها، وتعد السراي دفاتر لقيد أسماء المهنئين، وجاءت الثورة فعرفت لهذا اليوم العظيم حقه، فزادت في احتفائها به.

المولد النبوي

كان الفاطميون يقدسون هذا العيد ويتصدقون فيه ويقومون بالصلاة على النبي وتمجيد اسمه ويشاركهم في ذلك الأيوبيون والمماليك.

وفي القرن التاسع عشر حتى العهد القريب كانت تجري مراسم هذا العيد هكذا: يجتمع أصحاب المذاهب من بيومية ورفاعية وبكرية وشاذلية وصوفية وغير ذلك في ساحة القلعة، ثم تسير كل طائفة من هذه الطوائف ببيارقها وطبولها ومزاميرها. مخترقة أحياء الحبانية وسوق السلاح والحي الحسيني، حتى باب الفتوح، ثم تنحرف إلى العباسية حتى حي الخفير. حيث لكل طائفة من هذه الطوائف سرادق خاص. كما أن لكل وزارة من وزارات الحكومة سرادقًا. وكان للخديوي سرادق ضخم يتوسط هذه السرادقات جميعها، وكان يقف وحوله الوزراء ورؤساء هذه الطوائف الآنفة الذكر فيستعرض قسمًا من الجيش ثم جميع هذه الطوائف وهي مارة أمامه. فكان إذا بلغته طائفة منها دعت له ثم للإسلام. ثم تنصرف إلى سرادقها حيث تقوم بالذكر عامة الليل، وينصرف الخديوي بعد ذلك وتفرق الحلواء على المدعوين في سرادقات الوزارات. وفي الليل تطلق الصواريخ ابتهاجًا وفرحة بالمواد الكريم ويجتمع عدد ضخم من سكان القاهر للمشاهدة واللهو.

يوم عاشوراء

كان الفاطميون يسمون هذا اليوم بيوم الحزن، لأنه ذكرى لمقتل الحسين بن علي في وقعة كربلاء بالعراق، فتعطل فيه الأسواق ويعمل فيه سماط يسمى سماط الحزن، ولكن الأيوبيين كانوا يتخذون منه يوم سرور يوسعون فيه على عيالهم ويتبسطون في المطاعم، ويصنعون الحلواء ويتزينون وذلك نكاية في أهل الشيعة، وكذلك كان يفعل المماليك، ولا يزال بعض أهل القاهرة يصنعون اليوم ضربًا من الحلواء يسمونه بالعاشوراء عند مرور هذا اليوم.

عيد الغدير

احتفل الفاطميون بهذا العيد، لأنه ذكرى يوم الغدير، قيل عن النبي صلوات الله عليه أنه قال عند وقوفه بهذا الموضع: "من كنت مولاه فعلي مولاه"، والغالب أن هذا الحديث من دعايات الفواطم لترويج دعوتهم السياسية، وكان من عادتهم في هذا اليوم: تزويج الأيامى، وتفريق الهبات ونحر الضحايا وتوزيعها على السادة الفقراء، ولم يعن أهل القاهرة ولا حكامها بهذا العيد بعد زوال دولة الفواطم.

الأعياد الفاطمية

وكانت تحتفل القاهرة تحت ظل الفاطميين بأعياد أخر، هي: مولد علي بن أبي طالب، ومولد الحسين، ولا يزال الاحتفال جاريًا بهذا إلى

اليوم، ومولد الحسن، ومولد فاطمة الزهراء، ومولد الخليفة الحاضر، وليلة أول رجب، وليلة نصف رجب. لا تزال القاهرة تحتفل بها، وليلة رمضان – لا تزال القاهرة تحتفل بها إلى اليوم – وسماط رمضان. وليلة الختم، وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف، وموسم فتح الخليج لا تزال القاهرة تحتفل به إلى اليوم وسنتعرض له بعد ذلك. ويوم النوروز، وسنتعرض له أيضًا، ويوم الميلاد، وستتعرض له. وخميس العدس، وأيام الركوبات.

المحمل

أول من سير المحمل وابتدعه الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥ هـ. وكان يطوف القاهرة وعليه الكسوة التي كانت تقدم للكعبة. وكانت في أول أمرها تنسج في مدينة تانيس من أعمال دمياط. ثم انتقل عملها إلى حي الخرنفش في عهود أولاد مُحَمَّد علي.

وكان المحمل يخترق شوارع القاهرة ثم يركب بعد ذلك البحر حاملًا الكسوة لتقديمها إلى الكعبة لكسوتها، ولم يزل كذلك من أيام الظاهر بيبرس حتى الملك فؤاد، وكان عادة يبدأ سيره من القلعة، وينتهي هذا السير في العباسية.

وقد اعترض عليه وعده بدعة جماعة من الوهابيين هاجموه في مكة، وحدثت ملحمة بين حرس المحمل وجماعة من متعصبي الوهابية زُهقت فيها أرواح الفريقين، فرأت مصر أن تبطل هذه العادة، وترسل الكسوة إلى

الكعبة في غير احتفال. وكانت دواوين الحكومة في القاهرة تغلق أبوابها احتفاء بالمحمل والكسوة، فلما بطل الاحتفاء بهما بطلت عطلتهما.

أعياد المسيحيين

كانت القاهرة كلها تحتفل بأعياد المسيحية في العهد الفاطمي، فكان إذا جاء ميلاد المسيح في السابع من يناير: تهادى الناس بالزلابيا، والحلواء القاهرية، والجلاب والسمك، وظل المسيحيون يحتفلون بهذا اليوم في الكنائس التي يطرقونها ليلًا للصلاة ثم بعمل الكعك: شأنهم في ذلك شأن المسلمين في عيد الفطر. ثم جاء بعد ذلك المسيحيون الغربيون فاحتفلوا بهذا اليوم. يوم ٢٥ ديسمبر في بهجة وشرب ورقص وإعداد أنواع من الشجر الأخضر يزينونه بالمصابيح والبهرج.

واحتفل المسيحيون أيضًا مع أهل القاهرة من المسلمين في العهد الفاطمي بليلة الغطاس، حيث كان يذهب الجميع إلى النيل للقصف واللهو بالمزامير والطبول، وكان المسيحيون خاصة يغطسون في النيل وحدهم، وظلت هذه العادة قائمة إلى اليوم في القاهرة، وإن كانت مقصورة على الأطفال حديثي الولادة الذين يغطسوهم في أواني ليطهروهم للدين المسيحي.

وكان أهل القاهرة جميعهم يشتركون في الاحتفال بيوم النوروز، والاحتفال بهذا اليوم مأخوذ عن الفرس أخذه أقباط مصر عنهم، وشاركهم القاهريون جميعًا في الاحتفاء به، فكان في العهد الفاطمي والعهد الأيوبي

وبعض العهد المملوكي تعطّل الأسواق ويهرع الناس إلى اللهو والمجون والغزل المكشوف ورش الماء في الوجوه والثياب والعبث الصارخ وتعاطي الهدايا وشرب الخمر.

ولم يزل الاحتفال بهذا اليوم الذي هو أول السنة القبطية له شأن في العربدة والخروج عن الآداب. حتى أبطله السلطان برقوق أحد السلاطين البرجية، ولا يزال أقباط القاهرة يحتفلون بأحد السعف وخميس العهد وعيد القيامة وغير ذلك من أعياد القديسين.

زفة العجم

في عاشوراء كانت تقام حفلة العجم الدينية. في الصباح الباكر تغلق أبواب المشهد الحسيني بالسلاسل الحديدية، ويقوم عليها حرس من البوليس من جميع الجهات بحراسة قوية. وتبتدئ بعد ذلك زفة العجم وتكون بعد الظهر، وتتكون من غلامين صغيرين لا يتجاوز سنهما عشر سنوات جميلي الوجه يمتطيان جوادين يرمز إليهما بالحسن والحسين. ويكونان دائمًا في وسط الحفل الذي يضم أغلب الإيرانيين القاطنين في القاهرة، وعند ذلك يسير الجميع: جماعات في صفوف. كل صف يتكون من أربعة. نصفهم الأعلى عار. وفي أيديهم سلاسل حديدية. وخلفهم جماعة أخرى.. كل جماعة تنتظم أربعة من الرجال في أيديهم سيوف مشهرة وسكاكين ومعهم جماعات أخرى تحمل السلاسل. وينادي الجميع صائحين: "حسن حسين" ويرضون أصحاب السلاسل صدورهم وظهورهم

بهذه السلاسل. والذين في أيديهم السيوف والسكاكين. فهم يضربون بها جباههم فيسيل دماؤهم على وجوههم وصدورهم.

ويبدأ الموكب في السير من المشهد الحسيني مخترقًا شارع الموسكي حتى المعبد: وكان في منزل في أول شارع الموسكي. وتأخذهم نوبة من الجنون عند المشهد الحسيني فيضربون ويطعنون أنفسهم، ويحاولون اقتحام أبواب المشهد الحسيني فيحول بينهم وبين الأبواب المغلقة الحرس البوليسي المقام هناك. وعند نهاية المطاف في المعبد يكون هناك كثير من السائحين وبعض كبار المدعوين فينفض هذا القطيع الملوث بالدماء. ويأوي إلى غرف المعبد العديدة، ويكون هناك قنصل إيران ووجهاء الجالية الإيرانية في استقبال الضيوف السالف ذكرهم، وبعد ذلك ينتهي الحفل الدموي الذي أبطلته الحكومة المصرية سنة ١٩١٤.

الأعياد القومية

وفاء النيل. قطع البحر. جبر البحر

كان لهذا العيد القومي أثر بالغ في عهود القاهرة كلها، فكان الخلفاء الفواطم والسلاطين الأيوبيون والمماليك يحتفلون بهذا اليوم احتفالًا رائعًا. كان الخليفة أو السلطان يركب في هيئة ملوكية مع وزرائه ورجال دولته إلى حيث المقياس الذي يكون قد بلغ ستة عشر ذراعًا، ويكون قد أقيم له سرادق فخم وسيع لينزله هو ومن معه من حاشية ووزراء، ويحمل له كسوة بألف دينار. ولوزيره حلة بثلاثمائة دينار، وللحاشية حلل دون ذلك، كما

يحمل للملاحين الذين ينتظمهم الموكب، وللقائم على شؤون القياس حلل أيضًا.

وعند ذهاب الخليفة أو السلطان إلى هناك يتخذ مركبًا من موضع قريب من المقياس، ومعه الوزير وكبار رجال الدولة، ثم تتبعه سائر الحاشية في مراكب أخرى. ويكون الجند وقوفًا على الشاطئ للتحية والحراسة حتى إذا بلغ الركب السد الحاجز المقام بين النيل والخليج. أسرع العمال بفتحه فتنساب المراكب من النيل إليه. وعند ذلك توهب الهبات وتفرق الدنانير على الموظفين والحاشية. وكان لهذا اليوم جلاله عند الخلفاء والسلاطين. وتقلص شأن الاحتفاء بوفاء النيل حتى اقتصر في أواخر القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين على تزيين مركب تسمى بالعقبة تبدأ السير من ناحية بولاق وتنتهي إلى قسم فم الخليج حيت يكون سرادق معدًا فيه محافظ القاهرة ورئيس المحكمة العليا الشرعية وبعض كبار الموظفين وعلماء من المشايخ، فتتلى عليهم وثيقة وفاء النيل، وكان من عادة بعض الفقراء من أهل القاهرة: الطواف في القاهرة وهم يصيحون: "البحر زاد عوف الله. غرق البلاد عوف الله". ويحملون بعض السلع يستجدون بها الناس.

شم النسيم

الظاهر أن الاحتفاء بهذا العيد قديم العهد يرجع إلى قدماء المصريين، فهو عيد الربيع، أو عيد الفصل، ولا يقع إلا في يوم الإثنين. ويختلف في المواقيت، ويقول بعض المؤرخين: أنه تخلف عن عيد النيروز الآنف الذكر.

ومن عادة أهل القاهرة في يوم شم النسيم: شم البصل وتعليقه فوق رؤوس الأطفال في ليلته. ومن عادتهم أيضًا: أكل الملانة والخص، وأكل الفسيخ ومعه البيض الملون.

وكان السقاة في القديم، وقبل أن تنشأ شركة المياه التي أقيمت في عهد إسماعيل الخديوي يحملون في قربهم الماء عند منتصف الليل، ويذهبون بها إلى زبائنهم يصبونها في الجرار والأزيار.

ومن عادة شباب أهل القاهرة: النهوض عند الفجر، والرواح إلى الحدائق العامة مع زوجاتهم وأولادهم وطعامهم وشرابهم فيمرحون ويلعبون ويقطفون الأزهار والرياحين ويجعلونها طاقات بهيجة يحملونها في أيديهم. ومن عادة المجّان من شباب القاهرة أيضًا: شرب الخمر في ليلة اليوم وظهره، ويفضلون من أنواع الخمر: الزبيب. وقد يعربد بعضهم فيأتي بالقبيح من الأفعال كالتعرض للنساء والمشاحنات وإيذاء الناس.

وشم النسيم: موسم الحانات، وعلى الأخص الحانات الرخيصة. مثل حانة العنبة في شارع مُحَمَّد علي، وحانات الفجالة، وحانات شارع كلوت بك، وبوظة الشجرة، وبوظة بولاق، وبوظة الظاهر، وغير ذلك من الحانات والبوظ.

أعياد أخرى

ومن أعيادها القومية: عيد الجمهورية، وعيد ذكرى الثورة، وعيد الدستور الجديد، وعيد الأم ٢١ مارس، وعيد انتصار السويس، وعيد اتحاد مصر وسوريا.

أعياد منقرضة

عيد الاستقلال، وعيد ١٣ نوفمبر، وعيد معاهدة سنة ١٩٣٦، ومطلع المحمل، وعرض الكسوة، ورجوعها، وجلوس ومولد أبناء مُحَمَّد علي: الخديويين والسلاطين والملوك.

الفهرس